

دوستويفسكي

التمساح

ترجمة: د. سامي الدروبي

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق - متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

التمساح

قصة مترجمة (١٨٦٥)..

الكاتب: ديستويفسكي

ترجمة: سامي الدروبي

عن هذا الكتاب..

في هذه الحكاية المضحكة، بعنوان التمساح، يحسُّ القارئ بتأثير من جوجول في دوستويفسكي؛ إنها تذكر بقصة جوجول عن مغامرة "الأنف" العجيبة، وهذا ما يعترف به دوستويفسكي نفسه، فكما تخيَّل جوجول في سبيل الإضحاك أنفًا يتخذ وجه إنسان، كذلك تساءل دوستويفسكي، حين رأى تمساحًا جيء به إلى مدينة سان بطرسبرج: فما عسى أن يفعله إنسان يبتلعه هذا الحيوان حيًّا؟.

وهكذا ألّف دوستويفسكي حكاية مضحكة تشتمل على نقد للأفكار التي كانت رائجة حوالي العام 1860.

إن بطل القصة، وهو موظف ليبرالي، يحسّ بارتياح في جوف التمساح، فهو يستطيع أن يضع هناك نظرية اقتصادية جديدة، وأن يلقي محاضرات عن التاريخ الطبيعي في صالون زوجته الذي يؤخذ إليه التمساح، والموظف الكبير تيموتي سيميوفتش، الذي تلجأ إليه زوجة الرجل مروّعة مذعورة، يجيبها بأن التمساح لا يمكن أن يُبقَر بطنه، لأن صاحبه أجنبي، ولأن روسيا محتاجة إلى رؤوس أموال أجنبية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التمساح..

التمساح (Krocodil) ظهرت في مجلة «العصر» التي أصدرها دوستويفسكي، العدد الثاني من سنة 1865، ولم تكتمل بسبب احتجاب هذه المجلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حادثة خارقة

أو القصة الحقيقية التي تروي كيف أن سيدًا متقدمًا في السن محترمًا جدًا قد إبتلعه وهو حي تمساح «الممر»، وما الذي نشأ عن ذلك.

لا مبير؟ أين لا مبير؟ هل رأيت لا مبير؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

هو اليوم الثالث عشر من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ألف وثمانمائة وخمسة وستين، في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرًا. في تلك الساعة من ذلك اليوم إنما شعرت إيلينا إيفانوفنا (زوجة إيفان ماتفئتش، صديقي العالِم الذي أستطيع أن أقول عنه أيضًا أنه صاحبي ورفيقي كما أنه قريبي في الوقت نفسه) برغبة مفاجئة في أن نرى التمساح الذي كان يُعرض في «الممر» ([1]) وقد اتفق أن كان إيفان ماتفئتش حرًّا في ذلك اليوم نفسه، لأنه كان قد حصل على إجازة؛ حتى لقد كان في جيبه تذكرة سفر إلى الخارج بالقطار، وكان يريد أن يقوم بهذه الرحلة لأنه يشتهي أن يرى أشياء جديدة، لا لأنه يريد العلاج من مرض. ولم يعارض أية معارضة في إرضاء حب الاطلاع الشديد الذي استبد بنفس امرأته، لأنه كان يشاطرها حب الاطلاع هذا في حقيقة الأمر.

قال بلهجة راضية:

- هذه فكرة رائعة! هلمي نَر التمساح. ففي الوقت الذي تستعد فيه للقيام برحلة إلى الخارج، لا يكون من غير المستحسن أن نطلع منذ الآن في بلادنا نفسها على السكان الأصليين لتلك البلاد.

قال ذلك، وقدَّم ذراعه لامرأته، فاتجه الاثنان نحو «الممر».

وقد شاركتهما هذه النزهة بصفتي صديقًا للأسرة، وعملًا بعادة ألفناها فلم نخرج عليها ولا تخلفنا عنها.

لم أرَ إيفان ماتفئتش، في يوم من الأيام، مشرق المزاج مرح النفس، كما رأيته في ظهر ذلك اليوم الذي لا سبيل إلى نسيانه. آه!... إننا لا نقرأ المستقبل، ولا نعلم الغيب!

ما إن دخل إيفان ماتفئتش «الممر» حتى شعر بنشوة عظيمة وأحسَّ بإعجاب شديد حين رأى عظمة المكان، فلما وصل إلى حيث كان يُعرَض التمساح الذي جيء به إلى العاصمة، أظهر رغبة في أن يدفع الخمسة وعشرين كوبكا التي هي ثمن تذكرة دخولي أنا، وذلك أمر لم يسبق أن فعله قبل هذا اليوم قط.

فلما صرنا في القاعة الصغيرة التي يعرض فيها التمساح لاحظنا أن القاعة لا تضم التمساح فحسب، بل تضم كذلك ببغاوات من نوع «الكاكاتوس»، وعددًا من القرود في قفص موضوع في آخر القاعة. وقرب المدخل، على طول الجدار الأيسر، كان يوجد حوض كبير من التوتياء تغطيه شبكة من أسلاك الحديد ويحتوي قليلًا من الماء. فكان هذا الحوض مسكنًا لتمساح كبير قد رقد فيه جامدًا لا يتحرك أكثر مما تتحرك صقالة خشبية، وكأنه قد فقد جميع قواه الطبيعية منذ أصبح يعيش في جوِّنا الرطب الذي لا يناسب الأجانب البتة.

إن لقاءنا الأول هذا بالمخلوق العجيب لم يثِر أنفسنا، ولم يهزَّ اهتمامنا.

قالت إيلينا إيفانوفنا بلهجة ممطوطة تعبّر عن خيبة الأمل:

- أهذا هو التمساح؟ إنني لم أكن أتخيله في هذه الصورة!

أغلب الظن أنها كانت تحسب التمساح جواهر ماس. وكان صاحب التمساح، وهو رجل ألماني، قد جاء يقف أمامنا وينظر إلينا في زهو وعجب وكبرياءٍ.

همس إيفان ماتفئتش في أذني يقول:

- من حقه أن يشعر بكبرياء، لأنه يعرف أنه الوحيد الذي يعرض على الناس تمساحًا في روسيا.

فعزوت هذه الملاحظة التافهة إلى ما كان عليه صديقي من إشراق المزاج ومرح النفس، لأن طبعه في العادة أميَل إلى الحسد والغيرة.

- لا يظهر على تمساحك هذا أنه حي.

كذلك عادت تقول إيلينا إيفانوفنا التي ساءتها ثقة صاحب التمساح بنفسه، وجرأته ووقاحته بالنظر إلى غيره. وقد قالت له هذه العبارة وهي توجه إليه ابتسامة لطيفة رقيقة، أملًا منها في أن تخفّف من غلوائه وأن تكسر من حِدّة وقاحته، وتلك وسيلة مألوفة لدى النساء.

فأجابها الرجل بلغة روسية مكسَّرة تكسيرًا رهيبًا:

- عفوك يا سيدتي!

ثم أسرع يرفع شبكة الأسلاك الحديدية، وأخذ يشاكس التمساح بعصا كانت في يده. من أجل أن يظهر التمساح أنه حيّ، حرَّك قدميه وذيله قليلًا، ورفع فكيه، وأخرج صوتًا يشبه أن يكون زفرة طويلة.

فقال الألماني برفق وقد بدا عليه ما يبدو على امرىء أُرضيَ غروره:

- طيب طيب، لا تزعل يا كارلشن!

ودمدمت إيلينا إيفانوفنا تقول في غنج ودلال:

- ما أخبثه، هذا التمساح! لقد أخافني! لقد أخافني! أنا واثقة بأنني سأراه في المنام.

قال الألماني ملاطفًا:

- لن يستطيع أن يعضَّك في المنام يا سيدتي!

أخذ يضحك، ولكن ضحكه لم يجد صدًى.

قالت إيلينا إيفانوفنا تخاطبني وحدي:

- هيا بنا نَرَ القرود يا سيميون سيميوفتش. إنني أحب القرود كثيرًا. أنا أعبد القرود. وها هنا قرود لطيفة جدًا. أما هذا التمساح فهو رهيب!

صاح إيفان ماتفئتش يقول لها وهو يتمايل ويظهر أمامها جماله:

- لا تخشي شيئًا يا عزيزتي. إن هذا الساكن الوَسنان من سكان مملكة الفراعنة لن يلحق بنا أي أذى!

وبقي إيفان ماتفئتش قرب حوض الماء. ثم لم يلبث أن أخذ يدغدغ منخرَيّ التمساح بطرف قفازه بغية أن يحمله على أن يزفر زفيرًا صاخبًا، كما اعترف لنا بذلك فيما بعد.

وسار صاحب التمساح وراء إيلينا إيفانوفنا يتبعها نحو قفص القرود. أليست إيلينا إيفانوفنا سيدة؟!... هكذا جرى كل شيء إذًا على خير ما يرام، ولم يكن في وسع أحد أن يتنبأ بوقوع أي حادث.

إفتتنت إيلينا إيفانوفنا بالقرود، وأولتها كل انتباهها ووقفت عليها كل اهتمامها. وكانت تطلق صرخات صغيرة فرحة، وتتظاهر بأنها لا ترى التمساح، وتتسلى باكتشاف مشابهات بين هذا أو ذاك من هذه الحيوانات، وبين فلان أو فلان من أصدقائها ومعارفها. وكنت أبتهج بذلك معها، لأن تلك المشابهات كانت واضحة بارزة دائمًا. أما الألماني فإنه لم يعرف هل كان يجب عليه أن يضحك أو أن لا يضحك، ولكنه أصبح عابس الهيئة كالح المزاج آخر الأمر.

وفي تلك اللحظة بعينها دوَّت في القاعة صرخة رهيبة، بل صرخة يمكن أن أصفها بأنها خارقة للطبيعة وإذ لم أعرف كيف أفكر ولا ماذا أقدِّر، فقد لبثتُ متجمدًا في مكاني، حتى إذا رأيت إيلينا إيفانوفنا تصرخ هي أيضًا، أسرعت ألتفت، فماذا رأيت؟

يا لهول ما رأيت! رأيت إيفان ماتفئتش العاثر الحظ قد أمسكه التمساح بفكيه من وسط جسمه، ورفعه إلى فوق، فأخذ المسكين يحرك ساقيه في الفضاء حركات أفقية. وسرعان ما إختفى. ولكنني استطعت، بسبب بقائي ساكنًا جامدًا لا أتحرك، استطعت أن ألاحظ جميع تفاصيل الحادث بانتباه شديد، واستطلاع محموم لم أشعر بمثله في يوم من أيام حياتي. لذلك سوف أستطيع أن أرويه لكم رواية دقيقة.

قلت لنفسي: «لشدّ ما كان سيزعجني أن أكون في محل إيفان ماتفئتش!».

ولكن فلنمض إلى الوقائع: رأيت التمساح يحرك فكيه الرهيبين ببراعة وحذق، فيشد إليه في أول الأمر قدمَيّ المسكين إيفان ماتفئتش، ثم رأيته يسمح له بأن يُفلت قليلًا، لأن صديقي العالم كان يحاول أن ينجو وكان يتشبث بالحوض، فما إن أفلت صديقي من بين فكي التمساح حتى عاد التمساح يبتلعه بسرعة حتى الحزام. ثم تركه يفلت مرة ثانية، واستمرّ يبتلعه مرة بعد مرة تدريجيًا، بحيث رأينا إيفان ماتفئتش يغيب عن أعيننا شيئًا بعد شيء، إلى أن ابتلعه كله في مرة أخيرة، فكنا نستطيع أن نميِّز كيف كان يدخل في جوف التمساح قليلًا قليلًا.

وكدت أصرخ أنا أيضًا لولا أن القدر شاء أن يبذل التمساح جهدًا آخر - ولعله فعل ذلك لتضايقه من ضخامة لقمة الغذاء هذه التي لم يألف مثلها - فإذا هو يفتح فمه الفظيع مرة أخيرة، وإذا نحن نستطيع أن نرى وجه قريبي العزيز المصاب الذي سقطت نظارتاه في بحيرة الماء وغارتا إلى القاع. لكأنّ هذا الرأس لم يعد إلى

الظهور إلا ليلقي نظرة أخيرة على أشياء هذه الأرض وأن يودِّع أفراح الحياة آخر وداع.

ولكن رأس قريبي لم يستطع حتى أن يحقق هذا الهدف، فإن التمساح سرعان ما استردَّ عزيمته، وبذل كل ما يستطيع من جهد، فإذا بالرأس يختفي إلى الأبد. إن عودة هذا الرأس الإنساني إلى الظهور، حيًّا في أغلب الظن، منظر رهيب شنيع، ومع ذلك فقد كان في هذا كله - تُرى أهيَّ سرعة الاختفاء أم هو سقوط النظارتين - أقول لقد كان في هذا كله عنصر يبلغ من قوة الإضحاك أنني لم أستطع إلا أن أنفجر ضاحكا. ولكنني إذ لاحظت أن الضحك في لحظة كهذه اللحظة خال من الاحتشام ألست صديق الأسرة؟ أسرعت أهتف قائلًا لإيلينا إيفانوفنا في تعاطف حزين:

- ضاع عزيزنا إيفان ماتفئتش!

لن أحاول أن أصف شدة الانفعال الذي اجتاح المرأة الشابة أثناء وقوع هذه الحادثة. وحسبي أن أذكر أنها بعد أن أطلقت تلك الصرخة الأولى، قد بدت متجمدة مشلولة، فهي تنظر إلى ما يحدث محملقة لا أكثر، وكأنها غير مبالية، ثم لم تلبث أن انفجرت تبكي في نحيب ونشيج، فأمسكت يديها.

أما صاحب التمساح فقد جُنَّ جنونه في تلك اللحظة من هول الضربة، فأخذ يقرع يديه إحداهما بالأخرى، وراح يصيح رافعًا بصره إلى السماء:

- آه... آه... تمساحي! عزيزي كارل! أمي! أمي! أمي!

فلما نادى صاحب التمساح هذا النداء، فُتح الباب الذي يقع في آخر المكان، وظهرت الأم واضعةً على رأسها قبعة. إنها امرأة متقدّمة في السن، ترتدي ثيابًا زاهية الألوان ولكنها مشعثة. وهرعت الأم نحو ابنها الألماني وهي تطلق صرخات حادة.

وكانت جلبةٌ رهيبة وضوضاء فظيعة. وكأن إيلينا قد مسَّها جنّ أو أصابت عقلها لوثة، فهي لا تزيد على أن تصرخ قائلة: «اقتلوه! اقتلوه!»؛ وهي تندفع تارةً نحو الألماني وتارة نحو أمه، ضارعة على غير شعور منها في أغلب الظن، أن يقتلوا لا أدري من، ولا أدري لماذا! أما صاحب التمساح وأمه، فلم يوليانا أي اهتمام، ولم يلتفتا إلينا أي إلتفات، وإنما هما يبكيان على طول الحوض كما يبكي عجلان!

- لقد هلك! سوف ينفجر بين لحظة وأخرى! بلع موظفًا بكامله!

كذلك كان يهتف صاحب التمساح. فتعول الأم قائلةً:

- عزيزنا كارل! عزيزنا كارل!

فيضيف صاحب التمساح:

- ها نحن أصبحنا أيتامًا بغير خبز!...

وتستمر إيلينا إيفانوفنا صائحة بغير كلل ولا ملل، وهي تتشبث بطرف ردنجوت الألماني:

- اقتلوه! اقتلوه!

فيقول الألماني وهو يتملّص منها:

- وكان يغيظ تمساحي أيضًا. ما كان شأن زوجك بتمساحي حتى يغيظه؟ لسوف تدفعين لي ثمن كارل إذا هو انفجر! لقد كان ابني، كان ابني الوحيد.

أعترف للقارىء أن أنانية هذا الألماني العابر وقسوة قلب أمه قد ساءتاني كثيرًا. ومع ذلك فإن الصرخات المتصلة التي كانت تطلقها إيلينا إيفانوفنا قائلة: «اقتلوه. اقتلوه!» قد أقلقتني أكثر من ذلك، وأصبحت تستأثر آخر الأمر بكل انتباهي. لقد ذُعرت حقًا!. ذلك أنني قد أسأت تأويل هذه الصيحات. فقد خيِّل إليَّ أن إيلينا إيفانوفتش قد فقدت صوابها إلى حين، ولكنها تريد أن تثأر لعزيزها إيفان ماتفئتش، فهي تطالب بحقها في ترضية، وتنادي بأن يعاقَب التمساح جلدًا بالسياط. على حين أنها كانت تقصد غير هذا تمامًا.

نظرتُ إلى الباب خلسة وأنا أشعر بشيء من الخجل والاضطراب، ثم توسلت إلى إيلينا إيفانوفنا أن تهدئ روعها، وأن لا تستعمل، خاصةً، تلك الكلمة الفاضحة: «اقتلوه»، لأن الإفصاح عن رغبة رجعية إلى هذا الحد، في مكان كهذا المكان، وسط «الممر»، بين أناس مثقفين، على بعد خطوتين من القاعة التي يلقي فيها السيد لافروف (2) محاضرته العامة في هذه اللحظة نفسها، إن الإفصاح عن مثل هذه الرغبة الرجعية في ظروف كهذه الظروف ليس أمرًا غير معقول فحسب، بل هو أمر غير مقبول أيضًا. إن من الممكن أن يجلب لنا الإفصاح عن هذه الرغبة الرجعية سياط النقد اللاذعة يلهب بها السيد ستيانوف (3) ظهرَيْنا. وسرعان ما صدقت مخاوفي من سوء الحظ. فها هو ذا الباب الذي يُغلق الغرفة التي يُعرض فيها التمساح، ها هو ذا يُشقّ، فيظهر على العتبة شخص له لحية وشاربان، ويحمل قبعته بيده؛ وها هو ذا يميل نحونا بالنصف الأعلى من جسمه، محتفظًا بنصفه الأسفل في الدهليز، متحاشيًا بذلك ضرورة أن يدفع ثمن بطاقة الدخول؛ وها هو ذا يقول وهو يبذل جهودًا عظيمة في سبيل المحافظة على توازنه، لإبقاء جذعه في الغرفة التي نحن فيها مع ابقاء قدميه في الدهليز:

- يا سيدتي، ان هذه الرغبة الرجعية التي تجيش في نفسك لا تشرِّف عقلك وذكاءك، ولا يمكن أن تكون إلا ثمرة نقص في فوسفور دماغك. لسوف تظلين مزدراة محتقَرة في مجلة «وقائع التقدم»، وكذلك في صحائفنا الهجائية النقدية...

ولكن الرجل لم يستطع أن يكمل كلامه. فإن صاحب المحل قد ثاب إلى رشده بسرعة، فلاحظ مرتاعًا وجود هذا الشخص في قاعة التمساح بالمجّان، فهجم على هذا التقدمي المجهول حانقًا، وطرده بضربات من قبضة يده. وغاب الرجلان وراء الباب، وأدركت فجأة أن هذه الجلبة كلها لا محلَّ لها ولا داعي إليها، فإن إيلينا إيفانوفنا بريئة كل البراءة من تلك النية التي ظُنَّت فيها ونُسبت إليها، أعني أن تكون راغبةً في إذلال التمساح بمعاقبته ضربًا بالسياط؛ وكل ما كانت تطالب به هو أن يُفتح بطن التمساح لإنقاذ إيفان ماتفئتش.

أسرع صاحب المحل يعول قائلا:

- أنت تريدين إذًا موت تمساحي! ألا إنني لأوثر مائة مرة موت زوجك على موت تمساحي... إن أبي قد عرض هذا التمساح. وإن جدي قد عرضه أيضًا. وأنا أعرضه. وسوف يعرضه إبني. سيرى جميع الناس هذا التمساح! أنا معروف في كل أوروبا التي تجهلك أنت، وسوف تدفعين لي غرامة.

وقالت الألمانية وقد جُنَّت غضبًا:

- نعم! نعم! لن ندعك تتصرفين قبل أن تدفعي لنا تعويضًا، لأن عزيزنا كارل سوف ينفجر!

وأضفت أقول بهدوء كبير وأنا أحاول أن أقود إيلينا إيفانوفنا إلى مسكنها:

- ثم إن قتل التمساح لا جدوى منه، لأن عزيزنا إيفان ماتفئتش لا بد أن يكون الآن محلقًا في العالم الآخر.

فما كان أشد دهشتي حين سمعت صوت إيفان ماتفئتش يقول فجأة:

- في رأيي أن الأفضل أن تستعينوا بالشرطة، لأن تدخّل القوة الحكومية يستطيع وحده إقناع هذا الألماني.

إن هذه الكلمات التي نطق بها إيفان ماتفئتش بقوة وصلابة، والتي تدل على أن له بديهة حاضرة خارقة، قد بلغت من إدهاشنا وإذهالنا أننا لم نشأ في اللحظة الأولى أن نصدق آذاننا. ومع ذلك أسرعنا نقترب من الحوض الذي كان يرقد فيه التمساح، وأخذنا نصغي إلى كلام السجين المسكين بانتباه شديد وإن كان يخالطه شيء من شك وريبة.

كان في صوته نحول، كأنه آتٍ من مكان بعيد جدًا، أو كأن صوت رجل ممازح تربَّص في الغرفة المجاورة ووضع فمه على وسادة وأخذ يصيح مقلدًا حديث إثنين من الفلاحين يتخاطبان عبر وادٍ من الوديان، ليخدع بذلك جمهورًا موجودًا في الغرفة الأخرى، وتلك لعبة أتيح لي أن أشهدها ذات مرة أثناء عيد الميلاد عند أناس من أصدقائي.

تمتمت إيلينا إيفانوفنا تسأله:

- إيفان ماتفئتش، صديقي، أأنت حي إذًا؟

فأجابها إيفان ماتفئتش:

- نعم، أنا حي، وعلى أحسن حال من الصحة والعافية؛ فبفضل رعاية الله وحمايته، بلعني التمساح دون أن يلحق بي أي خراب. شيء واحد يقلقني: كيف سينظر رؤسائي إلى هذا الأمر، وكيف عساهم يواجهونه؟ ذلك أنني حصلت على جواز سفر إلى الخارج، وها أنا ذا الآن في جوف تمساح، دون أن يكون ذلك مني مكرًا أو خديعة...

قاطعته إيلينا إيفانوفنا قائلة:

- ولكن يا صديقي ليس مهمًا أن يكون في ذلك مكر أو أن لا يكون فيه مكر، وإنما المهم إخراجك!...

فصاح صاحب التمساح يقول:

- إخراجه؟ لن أسمح لأحد بأن يمس تمساحي. سوف يتكاثر الجمهور هنا بعد الآن تكاثرًا عظيمًا، حتى ليسحق الناس بعضهم بعضًا من شدة الزحام. سأجعل ثمن تذكرة الدخول خمسين كوبكا، ولن يكون كارل في حاجة الى طعام.

قالت الأم:

- شكرًا لله وحمدًا!

قال إيفان ماتفئتش:

- هما على حق، فإنما ينبغي أن ننظر إلى الأمور نظرة اقتصادية قبل كل شيء.

صرخت أقول:

- يا صديقي، سأذهب إلى رؤسائنا فورًا لتقديم شكوى، ذلك أنني أرى أننا لن نستطيع أن نحل هذه القضية وحدنا.

أجاب إيفان ماتفئتش:

- هذا رأيي أنا أيضًا، ولكن من الصعب في هذه الفترة التي استحكمت فيها أزمة اقتصادية، أن يفتح بطن تمساح دون دفع تعويض. ولهذا السبب هناك سؤال لا يمكن تفادي طرحه: كم يطلب صاحب التمساح هذا ثمنًا لتمساحه؟ وهناك سؤال آخر ملحق بالسؤال الأول: من ذا الذي سيدفع المبلغ؟ ذلك أنك تعرف أنني لا أملك ثروة...

جمجمت أقول خجلًا:

- إلا أن تأخذ سلفةً على رواتبك...

ولكن سرعان ما قاطعني صاحب التمساح قائلًا:

- لن أبيع تمساحي. لن أبيعه بثلاثة آلاف روبل... سوف يكثر الجمهور الآن. يجب أن تدفعوا لي خمسة آلاف روبل.

كان صاحب التمساح يقول هذا الكلام فرحًا كل الفرح. وكان الطمع الشديد والبخل الوقح يُقرآن في وجهه.

صرخت أقول مستاءً:

- كفى! أنا ذاهب!

فقالت إيلينا إيفانوفنا باكية:

- وأنا أيضًا! وأنا أيضًا!... سوف أذهب إلى آندره أوسيبتش بنفسي، فأؤثر فيه بدموعي!...

فقاطعها إيفان ماتفيئتش قائلًا بقوة:

- لا... إلا هذا يا عزيزتي!

ذلك أن إيفان ماتفيئتش كان يغار على امرأته من هذا الرجل غيرةً شديدة منذ زمن طويل. كان إيفان ماتفيئتش يعرف أن زوجته تحب كثيرًا أن تذهب إلى رجل مثقف فتأخذ تبكي أمامه، لأن الدموع تناسبها كثيرًا.

واصل إيفان ماتفيئتش كلامه مخاطبًا إياي:

- لا، ولا أنصحك أنت أيضًا بهذا! لا يدري أحد ما الذي يمكن أن ينتج عن مسعى كهذا المسعى. ولكن إذهب اليوم إلى تيموتي سيميونفتش، فهو رجل متخلّف العادات، شديد الغباء، والأهم من ذلك أنه على جانب عظيم من الإستقامة. أبلغه سلامي واقصص عليه هذا الحادث بكل تفاصيله، وأعطه في الوقت نفسه سبعة روبلات كان قد ربحها مني حين لعبنا بالورق آخر مرة معًا. إن هذه البادرة لا يمكن إلا أن تحدث أثرًا حسنًا في قلب هذا الشيخ. فقد يسدي إلينا عندئذ بنصيحة حسنة. وبانتظار ذلك، أعد إيلينا ماتفئفنا إلى البيت.

ثم أضاف إيفان ماتفئتش مخاطبًا امرأته:

- هدّئي روعك يا عزيزتي! إن هذه الصرخات التي تطلقها النساء تتعبني، وأنا أحب أن أرتاح قليلًا. يضاف إلى ذلك أن الجو هنا لطيف حلو، رغم أنني لم أستطع حتى الآن أن أعرف نفسي في هذا المأوى الذي وجدتني فيه على حين فجأة.

- تعرف نفسك؟ أأنت ترى شيئًا في هذا المكان؟

كذلك سألته إيلينا إيفانوفنا صائحة بفرح شديد.

فأجابها الأسير الشقي:

- ظلمات كثيفة تحيط بي، ولكني أستطيع أن أتلمّس، أستطيع أن أرى بواسطة يديَّ إن صح التعبير. إلى اللقاء. كوني هادئة، ولا تحرمي نفسك من التسلية. إلى الغد! أما أنت يا سيميون سيميوفتش فتعال إليَّ هذا المساء. ومن أجل أن لا تنسى ذلك، لأنك شديد الذهول كثير النسيان، فاربط إصبعك بخيط.

أعترف لكم بأنني لم يسؤني أن أستطيع الانصراف، لأنني كنت أشعر بتعب، ولأن الأمر أخذ يضجرني. فسارعت أقود إيلينا إيفانوفنا إلى خارج المحل.

صاح صاحب التمساح يقول لنا:

- سيكلفك الدخول فى هذا المساء خمسة وعشرين روبلًا أيضًا.

قالت إيلينا إيفانوفنا وهي تنظر إلى وجهها في جميع مرايا «الممر»، فتلاحظ بسرور واضح أن هذه الهزة إنما زادتها جمالًا:

- يا إلهي! ما أشد طمع هؤلاء الناس!

فأجبتها وأنا أشعر بشيء من الانفعال وكثير من الاعتزاز بسيدتي:

- هذه وجهة النظر الاقتصادية.

فقالت وهي تجر صوتها اللطيف الحلو جرًّا:

- وجهة النظر الاقتصادية؟ إنني لم أفهم شيئًا مما قاله إيفان ماتفئتش منذ قليل في موضوع وجهة النظر الاقتصادية الكريهة هذه!

قلت لها:

- سأشرح لك الأمر.

وأخذت أفيض فى الكلام على النتائج المفيدة التي تنتج عن تجمع رؤوس الأموال الأجنبية في بلادنا، لا سيما وأنني كنت قد قرأت في ذلك الصباح نفسه مقالات في هذا الموضوع في جريدة «أنباء سان بطرسبرج» وفي جريدة «الشعرة» ([4]).

فأصغت إلى كلامي بعض الوقت، ثم قاطعتني قائلةً:

- ما أغرب هذا كله! هلَّا كففت حالًا، أيها الشقي، عن قَصّ هذه السخافات كلها! قل لي: أأنا محمرة الوجه كثيرًا؟

فانتهزت هذه الفرصة لأطري على جمالها فقلت:

- لست محمرة الوجه، بل أنت رائعة فاتنة!

دمدمتْ تقول مفتتنة:

- يا لك من رجل خالع العذار!

ثم أضافت تقول بعد صمت وهي تحني رأسها على كتفها برقة ورشاقة:

- أرثى لحاله، صديقي المسكين.

ثم قالت بغتة:

- ولكن رباه! قل لي: كيف عساه يأكل هناك... و... و... هبه احتاج إلى شيء ما... فما عساه يفعل؟

فأجبتها مرتبكا بعض الارتباك:

- سؤالك يأخذني على حين غرة.

والحق أن هذا الأمر لم يكن قد خطر لي ببال. ألا إن النساء ليتفوقن على الرجال تفوقًا كبيرًا فى الروح العملية، إذ حين يكون الأمر أمر مسائل الحياة!

وأضافت السيدة تقول:

- مسكين! ثم ما الذي حمله على أن يندَسَّ هناك! لا شك أنه محروم من جميع التسليات في وسط تلك الظلمات! وما قولك في أنني لا أملك صورة فوتوغرافية له! آه... ها أنا ذا أرملة أو شبه أرملة!

قالت ذلك وابتسمت ابتسامة ساحرة تدل على مدى ما تبدو لها حالتها الجديدة شائقة.

وأردفت:

- همْ.. إنني لأرثي لحاله كثيرًا مع ذلك...

هكذا كانت تعبِّر عن ذلك القلق الطبيعي جدًا الذي تشعر به امرأة شابة شائقة زال زوجها منذ قليل. مضيت بها إلى بيتها، فسألتني أن أمكث معها لتناول العشاء. وأخيرًا، بعد احتساء فنجان قهوة طيبة، استطعت أن أهدِّئها، وانصرفت من عندها في الساعة السادسة لأذهب الى تيموتي سيميوفتش مقتنعًا بأن جميع الرجال الذين لهم أسرة ولهم في الوقت نفسه مركز محترم لا بد أن يكونوا في منازلهم في تلك الساعة.

كتبت هذا الفصل الأول بالأسلوب الذي يناسب قصتي. ولكنني قررت أن أستعمل فيما سيلي لهجة أقل رفعةً، ولكنها طبيعية أكثر، وإني لأنبِّه القارىء إلى ذلك على النحو الذي توجبه الإستقامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

استبقني تيموتي سيميونتش المحترم بشيء من الاهتمام، ولكن مع شيء من الإضطراب. قادني إلى غرفة مكتبه، فأغلق بابها بإحكام، «حتى لا يزعجنا الأولاد» على حد تعبيره. قال ذلك وقد بدا عليه غير قليل من القلق.

أجلسني على كرسي قرب مكتبه، وجلس هو على مقعد، ولمَّ حافات معطف المنزل الذي كان يرتديه، وهو معطف مبطن بالقطن ذو زنّار، واصطنع هيئة قاسية؛ بل أستطيع أن أقول هيئةً رسمية، مع أنه لم يكن رئيسي ولا رئيس إيفان ماتفئتش، وإنما كان رفيقنا لا أكثر.

ثم قال:

- لاحِظ أولًا أنني لست رئيسًا، وإنما أنا مرؤوس مثلك ومثل إيفان ماتفئتش... ذلك كله لا يعنيني ولا أريد أن أتدخل في شيء.

ذُهلت. لا شك أنه كان إذًا على علم بالقصة كلها قبل أن أصل إليه. ومع ذلك حكيت له الحكاية تفصيلًا. وكنت أتكلم بلهجة فيها انفعال، لأنني كنت أقوم بواجب مقدَّس نحو صديق حقيقي. فأصغى إليَّ بدون دهشة، ولكن كانت تبدو عليه أمارات ارتياب واضحة.

فلما أنهيت كلامي قال لي:

- هل تصدِّق إذا قلت لك أنني كنت أتنبأ دائمًا بأن حادثًا كهذا الحادث سيقع لإيفان ماتفئتش؟

فقلت أسأله:

- كيف هذا يا تيموتي سيميوفتش؟ يخيّل إليَّ مع ذلك أن هذه الحادثة خارقة للعادة جدًا...

قال:

- موافق. ولكن قل لي: ألم تكن كل حياة إيفان ماتفئتش تتجه إلى نتيجة كهذه النتيجة؟ لقد كان جسورًا جسارة تشبه أن تكون وقاحة. ولم يكن في فمه كلمة غير كلمة «التقدم»، وكانت له أفكار أخرى كثيرة... فانظر الى أين يقودنا، هذا التقدم!

- ولكن يخيَّل إليَّ أن هذا الحادث الطارىء، العرَضي تمامًا، لا يمكن اعتباره قاعدة عامة تصدق على جميع التقدميين...

- الأمر كذلك شئت أم أبيت. صدقني. ليس هذا كله إلا نتيجة الإفراط في الثقافة. إن الذين يعرفون أكثر مما يجب أن يعرفوا يحشرون أنفسهم في كل مكان، ويمضون حتى إلى حيث لا يناديهم أحد ولا يطلبهم أحد.

وأضاف يقول كمن يشعر بأنه أسيء إليه أو أهينت كرامته:

- من الممكن أن تكون أعلم مني بهذا الأمر ذلك، فلست أبلغ مبلغك من الثقافة، وأنا امرؤ عجوز، وما دخلت الجيش منذ خمسين سنة إلا بصفتي إبن جندي من الجنود!

- ولكنك أسأت فهمي يا تيموتي سيميوفتش. بالعكس تمامًا، إن إيفان ماتفئتش يسألك أن تسدي إليه بنصائحك وأن تحميه، وهو يسألك ذلك والدموع في عينيه إن صح التعبير!

- همْ... والدموع في عينيه! ما هذه الدموع إلا دموع التماسيح، فلا ينبغي للمرء أن يثق بها وأن يركن إليها كثيرًا. غريب! ما كانت حاجته إلى السفر إلى الخارج؟ وبأي مال يسافر؟ إنه لا يملك حتى المال اللازم للسفر!...

قلت بلهجة شاكية:

- ادَّخر بعض المال بالتوفير يا تيموتي سيميوفتش. وقد تقاضى مكافأته الأخيرة فكنزها ولم يمسسها. ولم يكن في نيته أن يغيب إلا ثلاثة أشهر، ليزور سويسرا، بلاد غليوم تل...

- أي غليوم تل؟ ... همْ...

- كان يريد أن يتمتع بالربيع في نابولي وأن يزور المتاحف، ويرى العادات والأخلاق، ويشاهد الحيوانات...

- همْ... الحيوانات؟ في رأيي أنه كان لا يريد أن يسافر إلا زهوًا وعُجبًا. الحيوانات؟ أي حيوانات؟ أليس في بلادنا حيوانات كافية؟ إن عندنا متاحف، ومعارض حيوانات، وجِمالًا. والدببة تعيش على بعد خطوتين من بطرسبرج. وهو نفسه يسكن الآن في جوف تمساح...

- تيموتي سيميوفتش! رحماك! إن هذا الرجل قد ألمَّت به نازلة! وهو يناشدك صديقًا، كما يناشد قريبًا له أكبر منه سنًا... أيسألك النصح ثم تأخذ تلومه وتقرِّعه؟ هلّا رحمت إيلينا إيفانوفنا على الأقل؟!...

- أعن زوجته تتكلم؟ إنها امرأة رائعة!

كذلك قال تيموتي سيميونتش وقد لان لينًا واضحًا ونشق نفسًا من دخان التبغ. وتابع كلامه يقول:

- هي إنسانة رقيقة جدًا... ما أجمل رأسها حين تميل به على كتفها!... وما ألطف تدور جسمها... إنها لذيذة جدًا. أمس الأول كان يتكلم عنها آندره أوسيبتش.

- كان يتكلم عنها؟

- نعم، ويطريها إطراءً عظيمًا. كان يقول: «يا للصدر الناهد! يا للنظرة النافذة! يا للشعر الجميل! هي حلوى من الحلاوي، هذه السيدة!» حتى لقد ضحك... إن هذا السيد ما يزال شابًا. فانظر كيف يعيش هذا السيد حياته...

- ولكن ليس هذا هو الموضوع يا تيموتي سيميوفتش!

- طبعًا، طبعًا!

- فما العمل يا تيموتي سيميوفتش

- ما حيلتي أنا؟

- انصحنا، وجِّهنا، من حيث أن لك خبرة، من حيث أنك قريب. كيف يجب علينا أن نتحرك؟ إلى أية جهة يجب علينا أن نلتفت؟ أنبلغ الرؤساء، أم...

هنا صاح تيموتي سيميوفتش بقوة يقول:

- تبلغون الرؤساء؟ أبدًا. إذا كنتم تسألونني النصح فأنا أنصحكم بأن تخنقوا هذه القضية، أن تكتموها، أن لا تعملوا إلا على نحو خاص جدًا.

إن لهذه الحالة صفة خاصة، وإن لها طابعًا مريبًا. إن هذه الحادثة تقع أول مرة، ولا يمكن إلا أن تسيء إلى سمعة الموظف الذي وقعت له. لذلك يجب قبل كل شيء أن لا تتصرفوا في الأمر إلا بكثير من الحيطة والحذر والحكمة. ينبغي له أن لا يتحرك... ينبغي له أن ينتظر... أن ينتظر...

- ينتظر؟ ولكن كيف يا تيموتي سيميوفتش؟ ماذا لو اختنق في جوف التمساح؟

- لماذا يختنق؟ ألم تقل لي منذ هنيهة أنه استقر هنالك استقرارًا مريحًا؟

عدت أقصّ الحكاية من جديد. وفكر تيموتي سيميوفتش مليًا. ثم قال وهو يقلب علبة التبغ بين أصابعه:

- هِمْ... يخيل إليَّ أنه يُحسن صنعًا إذا بقي حيث هو، بدلًا من أن يسافر إلى الخارج. في وقته متسَع للتفكير. طبعًا... يجب أن لا نتركه يختنق هناك، ويجب أن نتخذ الإجراءات اللازمة للمحافظة على صحته. يجب عليه مثلًا أن يحاذر التعرض للزكام... أما فيما يتعلق بالألماني فأحسب أن الألماني على حق، بل وأحسب أنه على حق أكثر من خصمه. إن خصمه هو الذي دخل إلى تمساحه بغير إذنٍ منه، وليس هو الذي دخل إلى تمساح إيفان ماتفئتش الذي لا يملك تمساحًا على كلِّ حال إذا صدق ظني. والألماني يملك التمساح، فلا يمكن والحالة هذه فتح بطن التمساح دون دفع تعويض للمالك.

- ولكن الأمر أمر إنقاذ إنسان يا تيموتي سيميوفتش!

- هذا من شأن الشرطة، فإلى الشرطة إنما يجب أن تتّجهوا.

- ولكن قد يحتاجون إليه في المكتب فيسألون عنه ويطلبونه.

- يحتاجون إلى إيفان ماتفئتش؟ هيء هيء! أولًا، هو يعد الآن في إجاز. المفروض أنه يزور الآن أوروبا، وفي وسعنا أن نجهل ما الذي يعمله في الواقع. وسيختلف الأمر حين لا يلتحق بعمله في الوقت المعين. فعندئذ نسجل غيابه رسميًا، ونفتح تحقيقًا!...

- بعد ثلاثة أشهر! رحماك!...

- إذا كانت حالته سيئة، فالذنب في ذلك ذنبه. من ذا الذي دفعه إلى هناك دفعًا؟ من ذا الذي حمله على ذلك حملًا؟ قد يكون من الواجب أن نعين له حارسًا على نفقة الدولة، وذلك مخالف للأنظمة. ولكن الأمر الذي يجب أن تنظر فيه قبل كل شيء آخر هو أن التمساح ملك لصاحبه، وأن المبدأ الاقتصادي هو موضع البحث تبعًا لذلك. إن المبدأ الاقتصادي يعلو كل شيء. أمس، كان أجناتي بروكوفتش يتحدث في هذا الموضوع عند لوكاس آندرتتش. هل تعرف أجناتي بروكوفتش؟ إنه رأسمالي كبير يتعاطى أعمالًا ضخمة ويجيد التعبير عن آرائه. كان يقول: «نحن في حاجة إلى صناعة. فلا وجود للصناعة عندنا إن صح التعبير. فيجب علينا إذًا أن نخلق الصناعة، ومن أجل تحقيق هذا الهدف يجب أن نخلق طبقة بورجوازية. ولما كنا لا نملك رؤوس أموال، فيجب الإتيان برؤوس الأموال من الخارج. فعلينا إذًا، قبل كل شيء، أن نتيح للشركات الأجنبية أن تشتري أراضينا أجزاء أجزاء، كما يحدث هذا في كل مكان في البلاد الأجنبية. إن التملك الجماعي ([5]) هو السم القاتل، هو الآفة الكبرى، هو خراب روسيا!»، وكان يتكلّم بحماسة شديدة. ذلك يناسب هؤلاء الناس الذين هم أغنياء، ولا يعملون في وظائف الدولة... هو يقول إنَّ لا الصناعة ولا الزراعة يمكن أن تزدهرا ما بقي شيوع التملك هذا. هو يريد أن تشتري الشركات أرضنا كلها أقسامًا، بغية أن تجزّئها حصصًا صغيرة جدًا تبيعها بعد ذلك، فتتألف منها ملكيات فردية. وكان يستعمل لهجة حاسمة، قاطعة، جازمة وهو ينطق بكلمة: «تقـ... سيم». وإذا لم نعمد إلى البيع ففي امكاننا الإكتفاء بالتأجير. وأضاف يقول: «متى أصبحت أرضنا كلها في أيدي شركات أجنبية، سهل تحديد نصيب الفلاح، وبذلك يكون على الفلاح أن يعمل ليجني رزقه، ويكون من الممكن طرده من هذه الأرض أو من تلك عند الضرورة. فإذا شعر بهذا الخطر، أصبح أكثر احترامًا وأكثر طاعةً، وأنتج من العمل ثلاثة أضعاف ما ينتجه منه الآن بسبب كونه جزءًا من جماعة، فيستطيع لذلك أن يستخف بكل شيء. هو يعلم الآن أنه لن يموت جوعًا، لذلك نراه يتكاسل وينصرف إلى السكر. أما بالأسلوب الجديد فإن المال سيعود إلينا، وستجيء البورجوازية برؤوس أموالها. ثم إن «التايمز»، الجريدة الأدبية والسياسية التي تصدر في لندن، قد أعلنت، في دراسة نشرتها عن صحفنا، أنه إذا كانت رؤوس أموالنا لا تزداد، فلأننا تعوزنا الثروات الضخمة والبروليتاريا المنتجة...». إن أجناتي بروكوفتش يحسن الكلام جدًا. إنه خطيب حقًّا. في نيته أن يقدم مذكرة إلى السلطات العليا، مذكرة سينشرها بعد ذلك في جريدة «الأنباء». نحن بعيدون عن مشكلات إيفان ماتفئتش الشعرية...

قاطعته أقول:

- طيب. فماذا نحن فاعلون من أجل إيفان ماتفئتش؟

لقد تركت الرجل العجوز يثرثر، لعلمي بأن هذه آفة من آفاته، وبأنه لا يسوؤه أن يظهر أنه ليس متخلّفا، وأنه مطّلع على كل شيء.

قال:

- ماذا نحن فاعلون من أجل إيفان ماتفئتش؟ ولكن كل ما قلته يرتبط به ويدور عليه. إننا نبذل جميع جهودنا لإحضار رؤوس الأموال الأجنبية إلى بلادنا، فما كادت تتضاعف ثروة مالك التمساح بسبب إيفان ماتفئتش حتى أصبحنا نطمع في أن نفتح بطن هذا التمساح! فهل هذا معقول؟ في رأيي، من حيث أنا إبن صالح من أبناء الوطن، أن على إيفان ماتفئتش أن يغتبط وأن يعتز بأنه إستطاع أن يضاعف قيمة تمساح أجنبي ضعفين اثنين بدخوله فيه ضعفين اثنين؟ بل ثلاثة أضعاف! وإذا نجح صاحب هذا التمساح، فسيأتي رجل ثان بتمساح آخر، ثم ثالث بتمساحين أو ثلاثة، فتتجمع حولهم رؤوس الأموال، فإذا بنا نرى بداية نشوء طبقة بورجوازية. وليس يملك المرء إلا أن يشجع هذه الحركة، بل ليس يفيها المرء حقها من التشجيع مهما شجّعها.

صحّت أقول:

- ولكن هذه التضحية التي تطلبها من هذا المسكين إيفان ماتفئتش تكاد تكون فوق طاقة البشر يا تيموتي سيميوفتش.

- أنا لا أطلب شيئًا، وأرجوك أن تتذكر أنني لست رئيسًا، وهذا ما قلته لك منذ قليل. ويترتب على ذلك أنني لا أطلب شيئًا البتة. وإنما أنا أتكلم كلام إبن من أبناء الوطن، لا كلام جريدة «ابن الوطن» (6)، بل كلام إبن من أبناء الوطن فحسب. ثم إنني أعود فأسألك: ما الذي أمره بأن يحشر نفسه في جوف ذلك التمساح؟ هل يجوز لرجل جاد، لرجل ذي رتبة، لرجل متزوج زواجًا شرعيًا، أن يقوم بمغامرة كهذه المغامرة؟ ما هذا الذي فعله؟

- ولكن الأمر مستقل عن إرادته استقلالًا تامًا!

- من يدري؟ ثم بأي حال يمكن دفع التعويض لمالك التمساح؟

- من مرتبات إيفان ماتفئتش...

- أهي تكفي؟

قلت بحزن:

- لا تكفي وا أسفاه يا تيموتي سيميوفتش! في أول الأمر كان صاحب التمساح يخشى على حيوانه أن ينفجر، حتى إذا تأكد من أن كل شيء يجري على ما يرام، أخذ يتجبر ويتغطرس، وراح يتلذذ بالمطالبة بمضاعفة الثمن الذي طلبه في أول الأمر. في وسعه أن يضاعفه ثلاثة أضعاف أو أربعة! إن الناس سيتدفّقون أفواجًا كبيرة، وأصحاب التماسيح هؤلاء أناس بارعون. ثم إننا في موسم الكرنفال، والناس ينشدون التسلية، فلهذا السبب نفسه يجب على إيفان ماتفئتش أن يظل أمره مجهولًا وأن لا يتعجل. فليعرف الناس جميعًا أنه يرقد في جوف تمساح، ولكن يجب أن لا يُعرف هذا رسميًا. والظروف مواتية لكتمان الأمر على الصعيد الرسمي، لأن المفروض أنه سافر إلى الخارج. قد يقال إنه في بطن تمساح، ولكننا لا نعرف عن

هذا الأمر شيئًا، ذلك كله يمكن تدبيره فإنما المهم هو أن ينتظر ثم هل هو يتعجل الخروج كل هذا التعجل؟

- ولكن إذا...

- لا تقلق! إن له جسمًا قويًّا...

- طيب، وبعد أن ينتظر؟ ...

- آ... لا أخفي عنك أن الحالة عويصة. إن المرء يتيه فيها، والأنكى من ذلك أنها ليس لها سابقة. لو كان هنالك سابقة لكان في وسعنا أن نجد مخرجًا من هذا المأزق. أما وأنها ليس لها سابقة، فإلى ماذا نستطيع أن نستند، وعلى ماذا يمكننا أن نعتمد؟ وفيما نبحث عن حل، سيطول الأمر...

أوحى إليَّ بفكرة ملهمة، فسألته:

- ألا نستطيع إذا كان عليه أن يمكث في جوف التمساح وإذا شاءت رحمة الله أن يبقى هنالك حيًّا، ألا نستطيع أن ندبّر الأمور بحيث يقدّم إلى السلطة المختصة عريضة يطلب فيها أن يعتبر مواظبًا على عمله في الوظيفة رغم ذلك؟....

- همْ... إجازة بلا راتب.

- ألا يمكن الاحتفاظ له برواتبه؟

- على أي أساس؟ بأية صفة؟

- على أساس أنه موظّف موفد بمهمة مثلًا...

- موفد بمهمته؟ موفد إلى أين؟ ...

- إلى جوف التمساح، إلى أعماق جوف التمساح... ليجمع هناك معلومات... ليدرس الوقائع دراسة ميدانية، على الطبيعة! سيكون هذا بدعةً بطبيعة الحال، ولكنه سيكون كذلك تقدمًا، سيكون دليلًا على أن الدولة تهتم بتقدم العلم....

غرق تيموتي سيميوفتش في تأمل عميق. ثم قال أخيرًا:

- يخيّل إليَّ أن إيفاد موظف بمهمة إلى جوف تمساح أمر مستحيل، لأنه لا يتفق واللوائح النافذة. أية مهمة يمكن أن يقوم بها موظف هنالك؟

- مهمة القيام بدراسات طبيعية إذا جاز هذا التعبير، القيام ببحوث تباغت فيها الطبيعة مباغتة. إن العلوم الطبيعية، كعلم الثبات مثلًا، رائجة جدًا في هذا الزمان سيكون محل إقامته جوف التمساح، وسيبعث إلينا من هناك برسائل تتضمن معلومات عن الهضم لدى الزواحف مثلا، عن العادات الحشوية لدى هذه الحيوانات وهلم جرّا... إن في وسعه أن يجمع بذلك وقائع كثيرة...

- نعم، دراسات إحصائية في غالب الظن. لست متبحًّرا كثيرًا في هذه المسائل... ثم إنني لست فيلسوفًا. أنت تتكلّم عن وقائع. ولكن الوقائع لا تعوزنا، الوقائع عندنا كثيرة لا نعرف ماذا نصنع بها. أضف إلى ذلك أن هذا الإحصاء يبدو لي خطرًا...

- أين الخطر فيه؟

- هو خطر. ثم إن عليك أن تلاحظ أن الرجل سيكتب لنا تقاريره وهو راقد على جنبه. فهل يقوم الموظف بواجب وظيفته راقدًا على جنبه؟ هذه بدعة ثانية، وهي لا تقل عن الأولى خطرًا وليس هناك سابقة لو كان ثمة سابقة لجرت الأمور من تلقاء نفسها.

- كيف يمكن أن يكون هناك سابقة وهذا أول تمساح حيّ يؤتى به إلى بطرسبرج يا تيموتي سيميوفتش؟

قال:

- هم... حقًا؟

واسترسل في التفكير من جديد. ثم واصل:

- بمعنى من المعاني يمكن أن تعَدّ ملاحظتك صحيحة، ويمكن أن تتخذ أساسًا لمتابعة القضية. ولكن عليك أن تلاحظ من ناحية أخرى أنه إذا كان ظهور هذه التماسيح الحية سيورث الموظفين ميلًا إلى الاعتكاف في جوفها، فإذا هم يطلبون، بحجة أن الحياة فيها ممتعة، أن يوفَدوا إليها بمهمات بغية أن يقضوا هنالك وقتهم راقدين على جنباتهم، فسيكون هذا قدوة سيئة. اعترف بهذه الحقيقة. سيمضي جميع الناس بعدئذ إلى أجواف التماسيح يقبضون مالًا ولا يقومون بعمل.

- إفعل كل ما تستطيع أن تفعله يا تيموتي سيميوفتش! وبالمناسبة: لقد رجاني إيفان ماتفئتش بأن أدفع لك سبعة روبلات يدين لك بها من ربحك في لعبه معك.

- آ... نعم... لقد خسرها منذ مدة عند نيكيفور نيكيفورتش... أتذكر هذا. ما كان أشد مرحه في ذلك المساء... وما أكثر ما أضحكنا! والآن وتأثر العجوز تأثرًا صادقًا.

- عِدني بأن تهتم بالأمر يا تيموتي سيميوفتش.

- سأهتم. سأتكلم باسمي أنا. سأعرف كيف أتصرَّف. سأتظاهر بأنني أستعلم وأستفهم. بالمناسبة: إسأل عن الثمن الذي يطلبه صاحب التمساح.

لقحد رقَّ تيموتي سيميوفتش رقة ملحوظة

قلت له:

- لن يفوتني أن أسأل صاحب التمساح عن الثمن الذي يطلبه، ثم أجيء إليك فورًا لأطلعك على ما سيقوله لي.

- وزوجته... ها هي إذًا أصبحت وحيدة!... أهي تشعر بضجر؟

- في وسعك أن تزورها يا تيموتي سيميوفتش

- لِم لا؟ وقد فكرت في هذا فعلًا، وأرى أن المناسبة حسنة... ولكن ما هذه الفكرة، ما هذه الفكرة التي راودتهم فذهبوا يرون التمساح؟ على أنني أنوي أن أذهب أنا أيضًا لرؤيته.

- نعم يا تيموتي سيميوفتش. إذهب إلى هناك.

- سأذهب. ولكنني لا أريد أن يساور إيفان ماتفئتش أي أمل في هذا المسعى. إنني لا أقوم به إلا من حيث أنا فرد. هيّا، إلى اللقاء. أنا ذاهب الى نيكيفور نيكيفورتش. هل تكون هنالك؟

- لا بل سأكون في زيارة السجين.

- نعم، السجين، آه من الخفة والطيش!

ودَّعت العجوز. كانت خواطر كثيرة تزدحم في رأسي. إن تيموتي سيميوفتش رجل طيب، ولكن هذا لا ينفي أنني حين تركته أبهجني أن أتذكر أنه قد تجاوز الخمسين من عمره، وأن أمثال تيموتي سيميوفتش ليسوا كثرًا بيننا. وطبيعي أنني أسرعت أذهب إلى «الممر»، لأحمل الأنباء إلى المسكين إيفان ماتفئتش. يضاف إلى ذلك أنني كنت أحترق شوقًا إلى أن أعرف كيف استقر له المقام في جوف التمساح، وهل الحياة هنالك محتملة. الحياة في جوف تمساح! وكان يخيل في بعض اللحظات أنني لعبة في يد حلم شيطاني! وا أسفاه! إن الأمر أمر شيطاني حقًا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

ولكن لم يكن حلمًا، بل كان واقعًا لا سبيل إلى تفاديه. وإلا فهل كان يمكن أن أشرع في سرد قصته؟ حين وصلت إلى «الممر» كان الوقت متأخرًا يقارب الساعة الثامنة. ومن أجل أن أبلغ الحجرة التي يعرض فيها التمساح، إضطررت أن أمرَّ بسلم الخدمة، لأن الألماني قد أغلق المحل قبل موعد الإغلاق. كان الألماني، وقد ارتدى ردنجوتًا عتيقًا متسخًا، يسير طولًا وعرضًا، ويبدو راضيًا مرتاحًا أكثر مما كان يبدو في الصباح. إن المرء يحس بأنه مطمئن. لا بد أن ناسًا كثيرين قد جاءوا. ثم دخلت الأم، وكان واضحًا أنها إنما دخلت لتراقبني. وأخذت تتهامس مع ابنها الذي حملني فعلًا على أن أدفع له خمسة وعشرين كوبكا رغم أن المحل كان قد أغلق. إن هذا الرجل مبالغ في حب النظام. قال لي:

- ستدفع كلما جئت. ولكنك لن تدفع إلا خمسة وعشرين كوبكا، رغم أن كل فرد من أفراد الجمهور العادي سوف يدفع روبلًا كاملًا، وذلك لأنك تبدو صديقًا وفيًا لصاحبك، وأنا أقدر فيك هذا الوفاء.

- صرخت أقول وأنا أدنو من حوض التمساح أملًا أن تصل كلماتي إلى مسامع إيفان ماتفئتش وأن ترضي غروره.

- هل أنت حي؟ أأنت على قيد الحياة يا صديقي العزيز العالِم؟

فأجابني بصوت مختنق كأنه صوتٌ آت من تحت سرير، رغم أنني كنت قريبًا منه كل القرب:

- أنا حَيّ، وصحتي جيدة. حي وصحّتي جيدة. ولكننا سنتكلّم على هذا فيما بعد. قل لي قبل كل شيء: كيف تسير أمورنا؟

تظاهرت بأنني لم أسمع، وأسرعت أسأله، بلهجة فيها روح التعاطف والاشفاق: كيف حاله في جوف التمساح؟ وماذا يوجد هنالك؟ والحق أن سؤاله عن هذه الأمور لم يكن إلا واجبًا من واجبات الصداقة، بل ولم يكن إلا تقيدًا بقاعدة من قواعد الأدب والكياسة. ولكنه قاطعَني نافد الصبر مستاءً، ليصرخ قائلًا لي بلهجة الآمر المعهودة فيه، المألوفة عنده:

- كيف تسير الأمور؟ الأمور؟

وبدا لي صوته النحيل مزعجًا جدًا. فحكيت له، بأدق التفاصيل، الحديث الذي جرى بيني وبين تيموتي سيميوفتش، محاولًا في الوقت نفسه أن أسبغ على لهجتى شيئًا من التعبير عن الاستياء والامتعاض.

قال إيفان ماتفئتش يختم الكلام بلهجة فيها ذلك الجفاء نفسه الذي كان يستعمله دائمًا في مخاطبتي:

- العجوز على حق... إنني أحب الناس العمليين، ولا أطيق إحتمال الضعفاء، على أنني أعترف لك طائعًا بأن فكرتك عن إيفادي بمهمة ليست سخيفة إلى الحد الذي

يتراءى للمرء من أول وهلة. ذلك أنني أستطيع هنا فعلاً أن أقوم بملاحظات هامة جدًا شائقة جدًا، سواء من الناحية العلمية أو من الناحية الأخلاقية... ولكن هذه القضية تجري الآن مجرى لم يكن في الحسبان، وليست الرواتب وحدها هي ما يجب أن نشغل بالنا به. أصغِ إليَّ منتبهًا انتباهًا شديدًا. أأنت جالس؟

- بل واقف

- اجلس في أي مكان، ولو على الأرض وأصغِ إليَّ بانتباه شديد.

زخرت نفسي بغضب قوي، فتناولت كرسيًا، ووضعته على أرض الحجرة محدثًا قرقعةً صاخبة.

استأنف إيفان ماتفئتش كلامه مستمرًا على اصطناع لهجة رئيس:

- لقد وفد اليوم جمهور كبير جدًّا. ورأى صاحب التمساح أن من الضروري إغلاق المحل فى الساعة الثامنة، أي قبل موعد إغلاقه عادة، وذلك ليستطيع أن يحصي الخزنة، وأن يتخذ الإجراءات اللازمة ليوم الغد. علينا أن نفترض أن سادة الرجال، وسيدات المجتمع الراقي والسفراء، والمحامين، وغيرهم، سيجيئون غدًا. وليس هذا كل شيء. إن سكان مختلف المقاطعات والأقاليم من إمبراطوريتنا الواسعة الرائعة أخذوا يزحفون نحو العاصمة. وسأصبح محل أنظار الجميع رغم اختبائي. سيكون لي دور كبير من الطراز الأول. سوف أكون، وقد علّمتني التجربة، مِثالًا لعظمة النفس، وقدوة فى الإذعان للقدّر. سوف أكون أشبه بمنبر عالٍ تهبط منه على الإنسانية أقوال عظيمة. إذا لم تحسب إلا المعارف العلمية التي جنيتها حتى الآن عن هذا المخلوق العجيب الذي أسكن في جوفه، لكانت هذه المعارف وحدها ثمينة إلى غير نهاية. ذلك هو السبب في أنني غير آسف للحادث الذي وقع لي، وأنا أتنبأ بأن يكون له أثر عظيم فى حياتي وعملي.

قلت له فى خبث ومكر، لأنه أحنقني بكلامه عن نفس وحده وباعتزازه هذا الاعتزاز كله:

- أفلن تشعر بضجر؟

كنت قد تحيَّرت فعلًا. ساءلت نفسىي وأنا أصرف بأسناني: لماذا يتصنَّع الأحمق كل هذا التصنع؟ ألا إن الأولى به أن يبكي بدلًا من أن يتباهى ويتفاخر!..

أجاب عن سؤالي بقسوة:

- لن أشعر بضجر. إنني، وقد أصبح في وقتي متسع، أنصرف الآن انصرافًا كاملًا إلى الأفكار العظيمة الكبرى، واهتم بمصير الإنسانية جملةً. من هذا التمساح إنما ستخرج الحقيقة وسيخرج الضياء بعد اليوم. لا شك في أنني سأكتشف نظرية جديدة شخصية، وسأكشف علاقات اقتصادية جديدة، وسيكون من حقّي أن أعتز بذلك. لم أستطع قبل الآن أن أنصرف إلى هذه المسائل وأن أعكف عليها، وذلك لقلة أوقات الفراغ التي يدعها لي عملي في الوظيفة، ولانشغالي بالتسليات الإجتماعية التافهة.

أما الآن فسوف أحدث ثورة في كل شيء. سأكون «فورييه» (7) جديدًا... بالمناسبة: هل أعطيت تيموتي سيميوفتش السبعة روبلات؟.

قلت وأنا أحاول أن أُدخل في صوتي كل التعبير عمّا لمثل هذه التضحية من خطورة:

- نعم أعطيته إياها من جيبي.

فأجابني بغطرسة:

- سنتحاسب. إنني أتوقّع زيادات في رواتبي. لمن عساهم يزيدون الرواتب إن لم يزيدوها لي أنا؟ يخيّل إليَّ أنهم يجنون مني الآن فائدة عظمى. ولكن قل لي: والمرأة؟

- أتقصد إيلينا إيفانوفنا؟

فصرخ:

- المرأة!

لا حيلة للإنسان مع هذا الشيطان! وها أنا ذا أقصّ عليه، بمذلة، صارفًا بأسناني، كيف تركت زوجته. ولكنه لم يرضى حتى أن يصغي إلى كلامي كاملًا، بل قاطعني نافد الصبر قائلًا:

- إن لي آمالًا خاصةً بشأنها. إذا أصبحت أنا «هنا»، شهيرًا، فإنني أريد أن تصبح هنالك شهيرةً أيضًا. إن العلماء، والشعراء، والفلاسفة، وعلماء المناجم الذين يمرون بمدينتنا، ورجال الدولة، الذين سيجيئون إليَّ ليتحدثوا معي في الصباح، سوف يتردّدون إلى صالونها في المساء. يجب أن تبدأ باستقبال هؤلاء الناس منذ الأسبوع القادم. وستفي رواتبي بالنفقات ما دامت رواتبي ستتضاعف، لا سيما وأن كل ما ستحتاج إليه هو شيء من الشاي وعدد من الخدم. لا داعي إلى المزيد... لطالما انتظرت فرصة أن أجعل الناس يتحدثون عني، وأن يذيع صيتي وتطير شهرتي. ولكن كيف كان يمكن تحقيق ذلك وأنا في ذلك المركز المتواضع والرتبة التافهة؟ فما هي إلا لقمة واحدة يبلعها التمساح، فإذا بالأمور تعود إلى نصابها. سوف يسجّلون كل كلمة من كلماتي. إن أيسر تعبير من تعابيري سيحمل الناس على التفكير، وسيجعلهم يكررونه ويرددونه. وسوف تُطبع أقوالي وتُنشَر. سوف أكون معروفًا مشهورًا. سوف يدركون أخيرًا كفاءات هذا الرجل الذي تركوا للتمساح أن يبتلعه! بعضهم سيقول: «هذا رجل لو كان في بلد أجنبي لعيِّن وزيرًا، ولاستطاع أن يحكم مملكة بأسرها»، وسيقول آخرون نادبين متحسّرين: «كيف لم يعهد إليه بمملكة يحكمها؟». بصراحة: في أي شيء يمكن أن أعد أقل قيمة من رجل مثل جارنييه باجيس (8) أو غيره؟ وسوف تكون زوجتي ندًا لي: أنا أملك الذكاء، وهي تملك الجمال والفتنة. سيقول بعضهم: «لأنها جميلة إنما كانت زوجته»، ولكن الآخرين سيصيحون قائلين: «بل هي جميلة لأنها زوجته». الخلاصة: يجب على إيلينا إيفانوفنا أن تشتري منذ الغد «المعجم الأسيكلوبيدي» الذي نشر بإشراف آندره

كرايفسكي ([9])، من أجل أن تستطيع التحدث في جميع المواضيع، ويجب أن تُعنى عناية خاصةً بأن تقرأ فى كل يوم المقالة الإفتتاحية من جريدة «أنباء سان بطرسبرج»، وأن تقارن بينها وبين افتتاحية جريدة «الشعرة». أظن أن صاحب التمساح هذا لن يرفض أن يأخذني مع تمساحه بين الفينة والفينة إلى الصالون المتألق الذي تتربع على عرشه زوجتي، فأقول هنالك أشياء ذكية جدًا أكون قد هيأتها وأعددتها هنا منذ الصباح. لرجل الدولة سأذكر آرائي الحكومية؛ وللشاعر سأنشد قصائد؛ ومع السيدات سأكون مرحًا فكهًا رقيقًا دون أن أوقظ في نفوس أزواجهنّ أي قلق. ولكنني سأكون للجميع مثالًا عظيمًا على الخضوع للقدر، وقدوة كبيرة في الإذعان لمشيئة الله. سأجعل من زوجتي أديبة مرموقة. سأطريها أعظم الإطراء، وسأثني عليها أكبر الثناء، فأحمل الجمهور على أن يفهمها حق فهمها. ذلك إنني أعتقد بأن زوجتي تملك مزايا عليا وكفاءات فذة؛ فإذا كان من حق الناس أن يقولوا إن آندره ألكسندروفتش ([10]) يضارع في بلادنا ألفرد دوفييني، فإن من حقهم أن يقولوا إن زوجتي تضارع أوجينى تور ([11]).

أعترف للقارىء بأنني، رغم أن هذا الجنون مألوف في إيفان ماتفئتش معهود فيه، لم أملك أن أمتنع عن الإعتقاد بأنه يعاني من حمّى شديدة، وأنه يهذي. هو الآن إيفان ماتفئتش نفسه يُرى من خلال نظارة مكبِّرة تضخمه عشرين مرة في أقل تقدير.

قلت أسأله:

- صديقي، هل تأمل أن تعيش على هذه الحال مدة طويلة؟ قل لي: أأنت في صحة حسنة؟ كيف تأكل؟ كيف تنام؟ كيف تتنفس؟ لا تؤاخذني على هذا الفضول، فأنا صديقك، وحالتك خارقة تثير الفضول حقًا.

أجاب يقول بفخامة:

- فضول باطل لا طائل تحته، ولكنني أرضى أن أطفىء أواره في نفسك. تسألني كيف دبرت أمري ورتبت شأني في أعماق هذا التمساح العجيب؟ فإعلم أولًا أن جوف هذا التمساح خالٍ كل الخلوّ فارغ كل الفراغ، وما كان أشد دهشتي حين لاحظت ذلك! يخيل إليَّ أنني أقيم في كيس ضخم من المطاط شبيه بتلك الأكياس التي يبيعها تجار شارع جوروخوفايا، وكذلك تجار مورسكايا إذا لم يخطىء ظنّي، وتجار شارع فوزنيسنسكي. وما عليك إلا أن تفكر في الأمر قليلًا: هل كان يمكن أن أدخل جوف التمساح لو لم يكن خاليًا كل الخلو على هذا النحو الذي وضحته لك؟

صحت أقول مدهوشًا دهشة لها ما يسوِّغها طبعًا:

- أهذا ممكن؟ أمن الممكن أن يكون جوف التمساح خاليًا كل الخلو؟

قال إيفان ماتفئتش مؤكدًا بوقار شديد ورصانة عظيمة:

- كل الخلوّ. ومن الجائز أن تكون قوانين الطبيعة نفسها هي التي شاءت ذلك. إن كل ما يتألف منه التمساح لا يعدو بوزًا ضخمًا ذا أنياب قاطعة جدًا، وذيلًا طويلًا. أما

الجَوْف، المكان الذي يقع بين هذين الطرفين، فليس فيه إلا فراغ مفروش بشيء يشبه المطاط ولعله من مطاط.

قاطعته خارجًا عن طَوْري:

- والرئتان، والبطن، والأمعاء، والكبد، والقلب؟.

- لا وجود لشيء من هذا كله، ولعل شيئًا من هذا كله لم يوجد في وقت من الأوقات. ليست هذه الأوهام إلا ثمرة الحكايات الخيالية التي يرويها مسافرون طائشون. فكما تُنفَخ وسادة بهواء، كذلك ينتفخ بشخصي فراغُ هذا التمساح الذي يبلغ من مرونة الانمطاط حدًّا لا يصدقه العقل. وعلى هذا النحو يكون فى إمكانك أنت، بصفتك صديق الأسرة، أن تأتي فتجلس إلى جانبي متى شاء لك كرمك ذلك. إن في المكان متسعًا لك هنا. وأنا أفكر في استدعاء إيلينا إيفانوفنا إليَّ متى دعت الحاجة إلى هذا. ثم إن هذا الإكتشاف يتفق كل الاتفاق مع تعاليم العلوم الطبيعية، وإليك البرهان على ذلك لنفرض أنك قد أتيح لك أن تخلق تمساحًا جديدًا: إن هناك سؤالًا ما يلبث أن ينتصب أمامك قبل كل شيء، وهذا السؤال هو: ما هي الوظيفة الرئيسية للتمساح؟ وما يلبث الجواب عن هذا السؤال أن يفرض نفسه، وهو أن الوظيفة الرئيسية للتمساح هي أن يبتلع بشرًا. فكيف يجب أن يكون تشكيل التمساح ليقوم بمهمة الابتلاع هذه على أحسن وجه؟ الجواب محتوم لا مناص منه، وهو أن جوف التمساح يجب أن يكون فيه متسع لمن سيبتلعهم التمساح، أي أن جوف التمساح يجب أن يكون فارغًا، يجب أن يكون خاليًا. ولكن الفيزياء قد علّمتنا منذ زمن طويل أن الطبيعة تكره الخلاء. فلا بد إذًا أن يكون جوف التمساح خاليًا في البداية، على ألا يظل خاليًا هذا الخلو، ويجب عليه إذًا أن يبتلع كل ما قد يجده بغية أن يمتلىء. ذلك هو التعليل الوحيد الممكن لتلك الظاهرة التي تراها عند التماسيح، أعني ميلها إلى الابتلاع. وهناك فروق في البنية والتركيب بين الكائنات الحية. فالإنسان كلما كان فراغ رأسه أكبر كان شعوره بالحاجة إلى ملئه أقل. غير أن هذا الاستثناء الوحيد من القاعدة العامة الآنف ذكرها. هذا كله يبدو لي الآن واضحًا وضوح النهار. لقد أدركت هذا كله بقوة فكري وقوة تجربتي، إذ غصت إلى أغوار الطبيعة إن صح التعبير، إذ غصت إلى البوتقة التي تتهيأ فيها أسرارها، وإذ سمعت نبضاتها. لاحظ أن علم الاشتقاق اللغوي نفسه يتفق وما انتهيت إليه، فإن اسم التمساح (الكروكوديل) يعبِّر عما يتصف به هذا الحيوان من شراهة. إن كلمة كروكوديل كلمة إيطالية، أغلب الظن أنها من عهد فراعنة مصر، مشتقة حتمًا من الكلمة الفرنسية croquer بمعنى «قضم»، أي أكل، تغذّى... إن في نيتي أن أشرح هذا كلّه للجمهور عند إلقائي محاضرتي القادمة في صالون إيلينا إيفانوفنا متى نُقلتُ إليه في قاربي.

صحت أقول رغم إرادتي، بغير قليل من الرعب، لاعتقادي بأن صاحبي مصاب بحمى وأنه لذلك يهذي، صحت أقول:

- يا صديقي، أنت في حاجة إلى أن تتجرع مسهلًا!

- سخافة! أهذا لائق في وضعي الراهن؟ ومع ذلك كنت على يقين من أنك ستتكلم عن ضرورة شُرب مُسهل!

- ولكن قل لي يا صديقي: كيف تقيم أودك الآن؟ هل تعشيت اليوم مثلاً؟

- لا، ولكنني لست جائعًا، ومن الجائز جدًا ألا أطعم بعد اليوم أبدًا. وهذا أمر مفهوم جدًا هو أيضًا. فما دمت أشغل كل جوف هذا التمساح، فسوف أشبعه مدى الحياة، وسوف يكون في الإمكان أن يبقى سنين كثيرة دون أن يتناول أي طعام. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه لا بد له، أثناء إشباعي إياه، أن ينقل إليَّ ويبثَّ فيَّ جميع أنساغ الحياة التي في جسمه. وأنت تعلم أن هذه الطريقة هي التي تطبقها «المتغندرات» من النساء حين تضع في الليل شرائح نيئة من اللحم على الوجه، بمثابة كمادات، لتبدو نَضِرة مَرِنة فتانة بعد حمّام الصباح. إنني أغذّي التمساح من جسمي، ولكنني أتلقى منه في مقَابل ذلك غذائي. وهكذا يتغذّى كل منا بالآخر. ولكن لما كان أمرًا صعبًا، حتى على تمساح، أن يهضم رجلًا مثلي، فلا بد أن يشعر بشيء من الثقل في معدته - رغم أنه ليس بذي معدة -. لذلك تراني أتحاشى، في سبيل أن لا أزعجه، أتحاشى أن أستدير ما وسعني ذلك. إن في إمكاني أن أتحرك مستديرًا، ولكني أمتنع عن ذلك بدافع الروح الإنسانية. تلك هي المضايقة الوحيدة التي أعاني منها في وضعي الراهن، وبهذا يكون تيموتي سيميوفتش على صواب، بالمعنى المجازي، حين ينعتني بالكسل. ولكنني سأبرهن على أن في وسع المرء أن يغيّر مصير الإنسانية وإن يكن راقدًا على جنبه، بل وإنه لا يستطيع تحقيق هذا الهدف والوصول إلى هذه الغاية إلا وهو راقد على هذا الوضع. إن الكسالى هم الذين يُنضِجون الأفكار الكبرى وجميع التطوّرات الفكرية التي تؤيدها جرائدنا وتحبذها مجلاتنا. وذلك هو السبب فيما يقال بحق، من أن هذه المنشورات إنما هي مختبرات. ومهما يكن من أمر، فلسوف أنشىء من هنا ومن هناك مذهبًا اجتماعيًا كاملًا، ولن تستطيع أن تصدِّق مدى سهولة هذا العمل. حَسْبُ المرء، ليحقق هذا المشروع، أن ينزوي في ركن ناءٍ، كجوف تمساح مثلًا، وأن يُغمض عينيه. فسرعان ما تتكشف له جنة الإنسانية. منذ قليل، بعد أن انصرفتما، أخذت أبحث عن مذاهب، فلم ألبث أن وجدت منها ثلاثة. وأنا بسيل تحضير مذهب رابع. صحيح أنه لا بد للمرء، من أجل ذلك، أن يبدأ بقلب كل شيء رأسًا على عقب، ولكن أليس هذا سهلًا حين يكون المرء في جوف تمساح؟ وليس هذا كل شيء. فمن غياهب تمساح يبدو أن الإنسان يرى العالم رؤية واضحة وضوحًا عظيمًا... صحيح أن في وضعي الراهن بعض المضايقات، وإن تكن يسيرة تافهة. فإن جوف هذا التمساح بارد ولزج، عدا أن رائحته تشبه رائحة القطران. يخيل إليَّ دائمًا أنني أشم رائحة خفَّي المطاط العتيقين الذين كنت أنتعلهما في السنة الماضية. ولكن هذا كل شيء. فليس في إمكاني أن أشكو من أي مضايقة أخرى.

قلت له:

- إيفان ماتفئتش، هذه معجزات لا أكاد أستطيع أن أصدقّها. هل في نيتك إذًا أن لا تتعشى بعد اليوم طول حياتك

فأجابني قائلًا:

- ما هذه السفاسف التي تهتم بها يا ذا الرأس التافه السخيف؟ أأكون بسبيل أن أشرح لك أفكارًا عظيمة، وأن أعرض عليك آراءً كبرى، فإذا أنت... ألا فإعلم إذًا أن هذه الأفكار العظيمة التي جاءت تنير الليل الذي غصت فيه تُشبعني أكثر مما يشبعني أي طعام آخر. أضف إلى ذلك أن صاحبنا الممتاز، مالك التمساح، قد اهتم بهذا الأمر مع أمه الطيبة، فقررا أن يُدخلا من بوز التمساح، في كل صباح، أنبوبًا أستطيع بواسطته أن أرشف قهوتي أو أن أصيب شيئًا من حساء الخضار. وقد أمرا بإعداد الأنبوب. ولكنني أرى أن هذا الأنبوب زائد لا حاجة إليه. إنني آمل أن أعيش ألف سنة على الأقل، إذا صدق ما يُقال من أن التماسيح تبلغ هذا المبلغ من طول العمر. حاول منذ الغد أن تعرف هذا من أحد كتب التاريخ الطبيعي، فمن الجائز أن أكون مخطئًا، ومن الجائز أن أكون قد إلتبس عليَّ الأمر فخلطت بين التمساح وبين حيوان آخر. هناك شيء واحد يقلقني: لما كنت أرتدي جوخًا وانتعل حذاءين، فمن المؤكد أن التمساح لا يستطيع أن يهضمني. يضاف إلى ذلك أنني حي وأنني أعارض بكل ما أملك من قوى إرادتي أن أُهضمَ هذا الهضم، لأنني لا أريد بحال من الأحوال أن يطرأ عليَّ ما يطرأ على الأطعمة عادةً من تحوّل، فإن في ذلك ذُلًا لا تطيق نفسي احتماله. ولكن المصيبة أن قماش ملابسي من صنع روسي، وأنا أخشى لذلك أن لا يصمد لإقامته ألف عام في جوف هذا الحيوان، فقد يتحلل آخر الأمر، فأصبح بلا درع يحميني، فيهضمني التمساح مهما أبذل من مقاومة. لن أسمح له بأن يهضمني أثناء النهار، ولكن ما حيلتي في الليل... حين ينام المرء فتبارحه إرادته؟ أفلا أتعرَّض عندئذ لذلك المصير المذلّ، وهو أن أُهضمَ كما تُهضمَ قطعة من البطاطس أو من الحلوى أو من لحم العجل! إنني أشعر بغضب شديد متى تصوّرت هذا. فمن أجل تحاشي مثل هذه الإحتمالات على الأقل، يجب تغيير الرسوم الجمركية، وحماية إستيراد الأصواف الانجليزية التي تستطيع لمتانتها أن تحمي من قوى الطبيعة التخريبية مدةً أطول، أولئك الذين يلبسونها حين يضطرون إلى الدخول في جوف تمساح. لسوف أنقل هذا الرأي إلى أحد رجال الدولة عند أول مناسبة، وسوف أنقله كذلك إلى رؤساء تحرير كبريات صحفنا اليومية، من أجل أن أثير حركة في الرأي. وآمل أن أخدم أمورًا أخرى كثيرة أيضًا. ولست أشك في أنني سأرى جمهرة كبيرة من المستطلعين يهرعون إليَّ في كل صباح، راضين أن يدفعوا خمسة وعشرين كوبكا في سبيل أن يعرفوا آرائي في آخر برقيات الليلة البارحة. وأقول باختصار إنني أرى أن المستقبل يعرض لي في أزهى أشكاله وأسطع ألوانه.

قلت لنفسي: «هي الحمى!»، وتابعت أقول بصوت عالٍ حتى يسمعه سماعًا أوضح:

- ولكن ما عساك صانعًا بالحرية يا صديقي؟ أنت الآن كمن يقيم في سجن. أفليست الحرية أكبر خيرات الانسان؟

أجابني قائلًا:

- ما أغباك! صحيح أن المتوحّشين يحبون الاستقلال، ولكن الحكماء الحقيقيين يحبون النظام قبل كل شيء ([12])، فما لم يوجد النظام...

- رحماك يا إيفان ماتفئتش!

زأر يقول غاضبًا أشد الغضب من مقاطعته:

- أسكت وإصغ. إنني لم أشعر بقوَّتي في يوم من الأيام كشعوري بها الآن. أنا في ملجأي الضيق هذا لا أخاف كثيرًا إلا من النقد الثقيل الذي تكيله الصحف الكبرى وإلا من الصفير الذي تطلقه جرائد الهجاء اللاذع. وأنا أخشى أن يتخذ مني الهازلون من الناس، والأغبياء، والحاسدون، والعدميون عامة، أضحوكة يتندَّرون عليها. ولكنني سأتخذ إجراءاتي. إنني أنتظر بفارغ الصبر الحكم الذي سيصدره عليَّ الرأي العام، وستصدره عليَّ الصحافة خاصةً منذ الغد. فكن على إطلاع كامل على هذا كله.

- سآتيك غدًا بكدسة من الجرائد.

- قد يكون ذلك استباقًا للأمور أن ننتظر شيئًا من الصحف في الغد، فإن الأنباء قلَّما تظهر فى الصحف إلا بعد ثلاثة أيام. ومع ذلك عليك منذ هذا اليوم أن تأتي إليَّ كل مساء من مدخل الخدم. لقد قرّرت أن أتّخذك سكرتيرًا. ستقرأ عليَّ الجرائد والمجلات، ثم أملي عليك آرائي وأعهد إليك بالمهمات التي يجب أن تقوم بها. لا تنسَ أن تجيئني كل يوم بجميع برقيات أوروبا. ولكن كفى هذا الآن. لا شك أنك نعست. فإرجع إلى بيتك ولا تفكر فيما قلته لك في موضوع النقد. إنني لا أخاف من النقد، لأن النقد نفسه يقف الآن في وضع حرج جدًا. حسبُ المرء أن يبقى عاقلًا وفاضلًا ليكون كمن يقف على قاعدة وطيدة لا تتزعزع. لئن لم أكن سقراط، فسوف أكون ديوجين، اللهم إلا أن أكون الاثنين كليهما في آن واحد، تلك هي رسالتي المقبلة بين الإنسانية.

هكذا كان يتكلم إيفان ماتفئتش، مبرهنًا على أن عقله خفيف عنيد معًا (صحيح أنه كان تحت تأثير الحمى)، وعلى أنه شبيه بتلك النساء الضعيفات الطبع اللواتي لا يستطعن أن يكتمن سرًا. إن جميع تلك الملاحظات التي قالها عن التمساح بدت لي جديرةً بالشك. هل من الممكن حقًا أن يكون جوف التمساح فارغًا مغرورًا، وأنه كان يسعى خاصةً إلى إذلالي. أنا أعرف أنه كان مريضًا، وأن على المرء أن يداري المرض، ولكنني أعترف صراحةً بأنني لم أستطع أن أطيق إيفان ماتفئتش في يوم من الأيام. لقد جعلني خاضعًا لوصايته طول حياتي ومنذ طفولتي. حاولت ألف مرة أن أنهي ذلك الوضع، غير أن شيئًا ما كان يردّني إليه في كل مرة؟ كما لو كنت آمل أن أقنعه بشيء لا أدري ما هو، وأن انتقم لنفسي أخيرًا. هي صداقة عجيبة أستطيع أن أقول إن تسعة أعشارها كانت كرهًا لا أكثر. ومع ذلك افترقنا في هذه المرة على شعور طيب.

قال لي الألماني بصوت خافت وهو يشيِّعني:

- صاحبك من أذكى الرجال.

ذلك أن الألماني كان قد سمع الحديث الذي جرى بيننا من أوله إلى آخره.

قلت له مخافة أن أنسى:

- بالمناسبة: ما هو المبلغ الذي قد تطلبه ثمنًا لتمساحك إذا عُرض عليك شراؤه؟

وقد سمع إيفان ماتفئتش السؤال، فانتظر الجواب بكثير من الإهتمام. وتراءى لي بوضوح أنه كان سيستاء أشد الاستياء لو طلب الألماني مبلغًا ضئيلًا. وقد سعل سعالًا خاصًا على كل حال.

لم يشأ الألماني في أول الأمر أن يسمع شيئًا حتى لقد مضى إلى حد الزعل والغضب، ثم صاح يقول حانقًا حنقًا شديدًا وقد احمرَّ لونه احمرارًا قويًا:

- لا أسمح أن يتجرأ أحد فيطلب مني أن أبيع تمساحي. لا أريد أن أفارق تمساحي. لن أقبل بمليون دينار ذهبي ثمنًا لهذا التمساح. لقد كان إيرادي منه في هذا اليوم وحده مائة وثلاثين دينارًا. وسيدر عليَّ عشرة آلاف بل ومائة ألف!

كان إيفان ماتفئتش يضحك لهذا الكلام سرورًا ولذة. وسيطرت أنا على نفسي وملكت شجاعتي، فعرضت على هذا الألماني المجنون كل ما في حساباته من خطأ، محافظًا على الهدوء والعقل اللازمين لإنسان يقوم بواجب الصداقة. قلت للألماني: لو صدق أنه سيجمع مائة ألف دينار ذهبي في اليوم، فلن يحتاج إلا إلى أربعة أيام من أجل أن يكون سكان بطرسبرج جميعًا قد زاروا محله، ثم ينتهي بعد ذلك كل شيء. وليس يدري المرء من ذا يعيش ومن ذا يموت. فمن الجائز أن ينفجر التمساح، ومن الجائز أن يمرض إيفان ماتفئتش وأن يتوفى، إلخ... إلخ... ففكر الألماني ثم أجابني يقول:

- في هذه الحالة سأطلب من الصيدلي قطرات دواء فلا يموت صاحبك.

قلت:

- قطرات الدواء شيء حسن. ولكن تذكر أن من الممكن أن تُرفع قضية. فما عساك تقول إذا ارتأت زوجة إيفان ماتفئتش أن تطالب بزوجها الشرعي؟ أنت تريد أن تغتني، ولكن هل أنت مستعد لأن تدفع لإيلينا إيفانوفنا نفقة إعالتها؟

أجابني بصوت وقور، حازم، قاطع:

- ليست هذه نيَّتي!

وأضافت الأم قائلة بغضب:

- لا، ليس لدينا هذه النية!

- فلننظر إذًا في الأمر مليًا: أليس الأفضل لكما أن تقبلا منذ الآن مبلغًا معقولًا هو ربح محقّق بدلًا من التعويل على فائدة غير مؤكدة. ثم إنني أحرص على أن ألفت انتباهكما إلى أنني لا ألقي هذا السؤال إلا من باب حب الاطلاع وحده.

اعتقد الألماني أن من المفيد أن يشاور أمه، فمضى بها إلى ركن من الشرفة كانت توجد فيه خزانة تضم القرد الذي هو أكبر مجموعة القرود ضخامةً وأبشعها صورةً.

قال لي إيفان ماتفئتش:

- سترى!

شعرت، من جهتي، برغبة قوية عنيفة في أن أهوي بعصًا على هؤلاء الناس جميعًا، فأشبعهم ضربًا موجعًا أليمًا، أعني الألماني وأمه، وخاصة إيفان ماتفئتش هذا الذي كان طموحه الجامح الذي لا حدود له يزعجني أكبر إزعاج. ولكن ماذا كان جواب الألماني الماكر؟ إنه، عملًا بمشورة أمه، قد طلب ثمنًا لتمساحه خمسين ألف روبل، سندات من آخر قرض داخلي، ومنزلًا مبنيًا بالحجر في شارع جوروخوفايا، مع صيدلية مجهَّزة كل التجهيز في ذلك المنزل نفسه، بالإضافة إلى رتبة كولونيل.

صاح إيفان ماتفئتش يقول بلهجة المنتصر:

- أرأيت؟ ألم أقل لك؟ إنه، باستثناء هذا المطلب الأخير - أعني باستثناء تسميته كولونيلًا، وذلك مطلب جنوني - أقول إنه باستثناء ذلك هو على حق، لأنه يجيد تقدير القيمة الحالية لحيوانه. إن وجهة النظر الاقتصادية تفوق كل شيء!

صرخت أقول لهذا الألماني حانقًا:

- عجيب! كيف تجسر أن تطالب برتبة الكولونيل هذه؟ ما هو العمل البطولي الذي قمت به حتى تستحق هذه الرتبة؟ ما هي الخدمات التي قدّمتها؟ ما هو المجد العسكري الذي تجلّلت به؟ أأنت مجنون؟

قال الألماني مستاءً من الإهانة:

- مجنون؟ بل أنا إنسان عاقل جدًا، وما أنتم إلا حمقى أغبياء! كيف لا يستحق المرء أن يسمَّى كولونيلًا وهو يستطيع أن يعرض تمساحًا في جوفه موظف حي من كبار موظفي الدولة!... هات لي، إن استطعت، روسيًا في إمكانه أن يريكم تمساحًا في بطنه موظف حي من كبار موظفي الدولة... أنا إنسان فذ، ولست أفهم لماذا لا يمكن أن أسمى كولونيلًا؟!

صحت أقول وأنا أرتعش من الغضب:

- إلى اللقاء إذًا يا إيفان ماتفئتش!

ومضيت مسرعًا حتى لأكاد أركض ركضًا. فلو قد بقيت دقيقة واحدة أخرى لفقدت سيطرتي على نفسي، ولأصبحت غير مسؤول عن تصرفاتي. إن الطموح العجيب الشاذ لدى هذين المخلوقين الأبلهين أمر لا يُطاق. واستطاعت طراوة الهواء أن تهدىء غضبي بعض التهدئة. وأخيرًا، بعد أن بصقت خمس عشرة مرةً، يسرة ويمنة، استوقفت عربة، وعدت إلى بيتي فخلعت ثيابي، وارتميت على سريري. إن ما كان يغيظني ويخرجني عن طوري أكثر من أيّ شيء آخر هو أنني أصبحت سكرتيرًا لإيفان ماتفئتش. معنى ذلك أنني، بعد الآن، سيكون عليَّ، حتى أقوم بما يجب على صديق حقيقي أن يقوم به من واجبات نحو صديقه، سيكون عليَّ أن أُجنَّ في كل مساء! وثبَّت في نفسي رغبة قوية في أن أضرب أحدًا، فما إن أطفأت شمعتي حتى أخذت أضرب رأسي وأجزاء شتى من جسمي بقبضة يدي ضربات متلاحقة. خفَّف عني هذا الضرب بعض التخفيف، ونمت آخر الأمر نومًا عميقًا، لأنني كنت محطمًا. وقضيت الليل أحلم بقرود. ولكنني في الصباح حلمت بإيلينا إيفانوفنا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

لم يصعب عليَّ أن أفهم أنني إذا حلمت بقرود فإنما يرجع ذلك إلى أنني قد رأيت قرودًا في القفص، أما حلمي بإيلينا إيفانوفنا فهذا أمر آخر. ولأذكر الحقيقة على الفور: لقد كنت أحب هذه السيدة. ولكنني أسارع فأضيف أنني كنت أحبها كما يحب أبٌ ابنته، لا أكثر من ذلك ولا أقل!... والشيء الذي يقودني إلى استخلاص هذه النتيجة هو أنني اشتهيت مرارًا أن أقبِّلها على جبينها الناعم أو على خديها الورديين؛ ولكن يجب أن أعترف أنني ما كنت لأرفض أن أقبلها على شفتيها، رغم أنني لم أفعل ذلك في يوم من الأيام... لا على شفتيها فحسب، بل أيضًا على أسنانها اللطيفة التي كانت تبدو أشبه بصف من لؤلؤات صغيرة جميلة متى ضحكت... وما أكثر ما كانت تضحك!...

كان إيفان ماتفيئتش، في لحظات انشراحه، يناديها «يا سخفي اللطيف»، وهو لقب صادق كل الصدق، صحيح كل الصحة، يميِّزها إلى أبعد الحدود. كانت في أكثر تقدير «امرأة سكرة». لذلك لم أستطع أن أفهم على أي شيء كان إيفان ماتفيئتش يعوِّل ويعتمد من أجل أن يجعلها في روسيا سيدة مثل أوجيني تور.

مهما يكن من أمر، فإن أحلامي، إذا صرفنا النظر عن القرود، قد أحدثت في نفسي مشاعر لذيذة إلى أقصى حد. وفي الصباح، أمام فنجان الشاي الذي كنت أحتسيه، أخذت أستعرض ذكريات الليلة البارحة، فإذا أنا أقرر أن أصعد إلى إيلينا إيفانوفنا في طريق ذهابي إلى مكتبي. وكان هذا، على كل حال، واجبًا يقع على عاتقي من حيث أنني صديق للأسرة.

في غرفة صغيرة كانت تجاور غرفة النوم، وكان صاحبايَ يسميانها الصالون الصغير، رغم أن الصالون الكبير كان ضيقًا شديد الضيق أيضًا، رأيت إيلينا إيفانوفنا جالسة على أريكة صغيرة جميلة، أمام مائدة صغيرة للشاي. إنها تلبس غلالة رقيقة، وتشرب قهوتها في فنجان صغير بعد أن تبلل بالقهوة قطعًا صغيرة من البسكويت.. كانت مشرقة الجمال، ولكن كان يبدو عليها شيء من انشغال البال. فلما رأتني هتفت تقول وهي تبتسم ابتسامة ذاهلة:

- ها... أهذا أنت أيها المتسكع! اجلس أيها الطائش الذي لا عقل له، واشرب معي قليلًا من القهوة! هيه... ماذا فعلت أمس؟ هل ذهبت إلى حفلة الرقص التنكرية؟

- أذهبتِ أنتِ إذًا إليها؟ هل تظنين أنني أستطيع السعي إلى الاحتفالات؟ ... لقد ذهبت أزور السجين...

قلت ذلك وتنهدت، واصطنعت هيئة الإنسان المكدود المرهق وأنا أرشف جرعة من القهوة.

قالت:

- ذهبت تزور من؟ السجين؟ أي سجين؟ آ... نعم... الفتى المسكين! أهو يشعر بضجر شديد؟ ... اسمع... كنت أريد أن أسألك... يخيَّل إليَّ أنني أستطيع أن أطلب الطلاق الآن، أليس كذلك؟

- الطلاق؟

كذلك صحت أقول وقد بلغت من الاستياء أنني أوشكت أن أقلب فنجان القهوة، لأنني قلت لنفسي غاضبًا: «إنه الأسمر».

ذلك أن هناك رجلًا أسمر ذا شاربين هو موظّف في مصلحة المباني، كان يزور الأسرة ويعرف كيف يضحك إيلينا إيفانوفنا. كنت أنا أكره هذا الرجل وأمقته، وقدَّرت أنه قد اتسع وقته في الليلة البارحة اتساعًا كاملًا لأن يراها في حفلة الرقص التنكرية، ولأن يقول لها سخافات كثيرة.

قالت المرأة الجميلة متدفِّقة في كلامها متعجّلة، كأنما هي قد كرَّرت درسًا تحفظه:

- سوف يبقى في التمساح إلى الأبد، ولن يرجع يومًا، فهل يكون عليَّ أنا أن أنتظره؟ يخيَّل إليَّ أن من واجب الزوج أن يقيم في بيته لا في بطن التمساح.

قلت بانفعال له ما يسوِّغه:

- ولكن هذا حادث مستقل عن إرادته كل الاستقلال...

فصرخت تقول غاضبة:

- آه... لا... لا أريد سماع حكاياتك هذه، لا أريد سماعها! إنك تعارضني دائمًا أيها الشرير! لا حيلة للمرء معك. لا أريد نصائحك. لقد قال لي غرباء أن في وسعي أن أحصل على الطلاق لمجرد أن إيفان ماتفئتش لن يقبض بعد اليوم رواتب.

صحت أقول بلهجة التأثر:

- إيلينا إيفانوفنا. أأنت حقًا من أسمعها تقول هذا الكلام، وتتحدّث على هذا النحو؟ من ذلك الرجل الخبيث الذي وضع في رأسك أفكارًا كهذه الأفكار؟ إنه لمن المستحيل أن تحصل امرأة على الطلاق من زوجها لسبب تافه هذه التفاهة وهو أن زوجها أصبح بلا راتب. وما ذنب ذلك المسكين إيفان ماتفئتش الذي ما يزال يحترق قلبه حبًا بك وشوقًا إليك وهو في أعماق تمساحه؟ إنه يذوب من هذا الحب وهذا الشوق كما تذوب قطعة سكر. أمس مساءً، بينما كنت أنتِ تتسلّين في حفلة الرقص التنكرية، كان هو يقول إنه سيقرر في آخر الأمر، عند الضرورة، أن يستدعيك إليه لأنك زوجته الشرعية، لتقيمي بقربه في قرارة التمساح، لا سيما وأن في المكان متَّسعا لشخصين اثنين وحتى لثلاثة أشخاص...

ولم ألبث أن قصصت عليها كل ذلك الجزء الشائق من الحديث الذي جرى بيني وبين زوجها في الليلة البارحة.

فقالت مذهولة:

- كيف؟ كيف؟ أتريد أيضًا أن ألحق بإيفان ماتفئتش في جوف التمساح؟ يا لها من فكرة! كيف تريد أن أدخل إلى هنالك بقبعتي وتنورتي ذات الأسلاك؟ رباه! ألا إن هذا لسخف مستحيل! بأي وجه أدخل إلى هنالك إذا رآني أحد؟ هذا مضحك! وكيف عساني أغتذي، وما الذي يمكن أن أصيبه من طعام؟ وما عساني أفعل إذا أنا... يا له من اختراع! وما هي التسليات التي يمكن أن أجدها هنالك فأفرِّج بها عن نفسي؟ وأنت تقول لي إن الجو هنالك تفوح فيه رائحة المطاط! وسيكون عليَّ أن أبقى راقدة بقربه حين نختصم أو نشتجر! هه! يا للهول!...

قاطعتها قائلًا بحرارة طبيعية جدًا لدى رجل يعرف كيف يقاتل في سبيل الحقيقة:

- أنا أفهم، أنا أفهم جميع هذه الحجج الرائعة أيتها العزيزة إيلينا إيفانوفنا، ولكنك لا تحسبين حساب ذلك الأمر الهام، وهو أنه لا يستطيع أن يعيش بدونك ما دام يطلبك. هذا دليل على ما يحمله لك من حب، من حب حار وفيٍّ أمين... إنك لم تقدّري قيمة حبه أيتها العزيزة إيلينا إيفانوفنا!

صرخت تقول وهي تحرِّك يدها الصغيرة الجميلة جدًا ذات الأصابع الوردية اللامعة:

- لا أريد، لا أريد، لا أريد أن أسمع شيئًا! إنك تُبكيني أيها الخبيث! اذهب أنت إلى جوف ذلك التمساح إذا طاب لك هذا. أنت صديقه. فاذهب إليه إذًا، وارقد إلى جانبه حبًا بالصداقة، واقض حياتك هنالك في مناقشات معه حول موضوعات سخيفة!

قلت بوقار ورصانة أقاطع تلك المرأة المسرفة في الخفَّة والطَيش:

- إنك لتخطئين حين تنظرين إلى هذا الاحتمال نظرة استهزاء وسخرية. لقد دعاني إيفان ماتفئتش إلى اللحاق به. وليس من شك في أن واجبك يلزمك أنت بهذا، أما أنا فإن ذهبت فإنما أذهب كرَّما وجودًا وسماحة. أمس، حين كان إيفان ماتفئتش يشرح لي ما تتصف به جدران جوف التمساح من مرونة وقدرة على الانمطاط، أشار صراحةً إلى أن في جوف التمساح متسعًا، لا لكما فحسب، بل ولي أنا أيضًا، بصفتي صديق الأسرة، وأشار صراحة إلى أن في وسعنا أن نستقر نحن الثلاثة هنالك، إذا أنا أردت؛ ولهذا الغرض...

هتفت إيلينا إيفانوفنا تقول وهي تنظر إليَّ بغير قليل من الدهشة:

- نحن الثلاثة؟ كيف؟ أنقيم نحن الثلاثة إذًا هناك؟ هأ هأ هأ!.. ما أغباكما كليكما! لسوف أظل أقرصك هنالك طول الوقت أيها الخبيث! هأ هأ هأ! هأ هأ هأ!...

وارتمت بظهرها على مسند الكرسي وطفقت تضحك حتى سالت الدموع من عينيها. وبلغ ضحكها، وبلغت دموعها، وبلغ المشهد كله من الروعة والفتنة واللذة أنني لم أطق صبرًا فأخذت أقبل يدها، فلم تعارض ولم تقاوم، وإنما راحت تشد أذنيَّ علامةً على المصالحة.

عندئذ عاد إلينا المرح والفرح، فقصصت عليها بالتفصيل كل خطط إيفان ماتفئتش ومشاريعه، فسُرَّت سرورًا عظيمًا بفكرة سهرات الاستقبال في صالونها. ولكنها

لفتت انتباهي قائلة:

- غير أنني سأكون والحالة هذه في حاجة إلى عدة أثواب جديدة، ولا بد أن يرسل إليَّ إيفان ماتفئنتش مبلغًا كبيرًا من المال بأقصى سرعة.

ثم أضافت تقول مطرقةً:

- ولكن كيف يعملون من أجل أن يأتوني به في قاربه؟ هذا شيء مضحك جدًا. إنني لا أريد أن ينقلوا زوجي وهو في هذا الحوض. سأشعر من ذلك بخجل أمام ضيوفي... لا، لا أريد، لا أريد...

قلت لها:

- بالمناسبة، قبل أن أنسى. هل زارك تيموتي سيميوفتش مساء أمس؟

- نعم. وحاول أن يواسيني ويسلّيني. هل تتصوّر أننا قضينا السهرة كلّها نلعب بالورق؟ كان إذا خسر يعطيني حلوى، وإذا خسرتُ أنا يقبّل يديَّ. يا للفاجر! وتصور أنه كاد يجيء معي إلى حفلة الرقص التنكرية! هذا ما حدث فعلًا!...

قلت أجيبها:

- هي الحماسة! ومن الذي لا تستثار حماسته معك أيتها الساحرة الفاتنة!

- ها أنت ذا عدت إلى ملاطفاتك وأماديحك! توقّع إذًا أن أقرصك حين تهم أن تتصرف... إنني أجيد القرص الآن، ما رأيك؟ آه.. هل كلمك إيفان ماتفئنتش كثيرًا عني؟

- لـ... لـ... لا... ليس كثيرًا... أعترف لك أن أكثر اهتمامه منصرف الآن إلى مصائر الانسانية عامة، وأنه يريد أن...

- طيب، طيب، لا تُكمل كلامك، لا بد أن يكون هذا باعثًا على الضجر والملل. سأزوره في يوم قريب... غدًا في أغلب الظن، ولكن ليس اليوم... إنني أشعر اليوم بصداع، وسيكون هناك ناس كثيرون... وسيتهامسون قائلين: هذه زوجته... أستودعك الله... هل تذهب في هذا المساء إلى هناك؟ ...

- سأذهب إليه. لقد طلب مني أن أجيء وأن آتيه بجرائد.

- حسنٌ جدًا. إذهب إليه إذًا، واقرأ له. ولا داعي إلى عودتك اليوم إليَّ، لأنني أحس بتعب وإعياء... وربما قمت ببعض الزيارات... أستودعك الله أيها الفاجر!

قلت لنفسي: «طيب. لا داعي إلى أن أسألها هل يجيء الرجل الأسمر في هذا المساء!».

وفي المكتب، لم أظهر شيئًا من الهموم التي كانت تقضم نفسي. ذلك أن يكون طبعًا. ولكنني لم ألبث أن لاحظت أن عدة جرائد من جرائدنا التقدّمية كانت تتناقلها الأيدي، وأن الزملاء كانوا يعكفون على قراءتها بانتباه شديد. وكانت أولى هذه الجرائد التي وصلت إلى يدي هي «الصحيفة» ([13])، وهي جريدة ليس لها اتجاه

سياسي شديد الوضوح، غير أنها ذات ميول إنسانية، وذلك ما كان يجعل الموظفين في مكتبنا يشعرون نحوها بشيء من الاحتقار، ولكنهم يقرأونها مع ذلك. وإليكم ما وجدته فيها، وهو أمر أدهشني:

« هناك شائعات غريبة سرت أمس في عاصمتنا الكبرى المزدانة بمبانيها الفخمة الرائعة. ومفاد هذه الشائعات أن رجلًا اسمه نـ..، وهو امرؤ يحب الأطعمة الفاخرة، قد سئم في أغلب الظن من مطعم بوريل ([14])، كما سئم من نادي «.... سكي»، فدخل إلى «الممر»، واتجه إلى المكان الذي يُعرض فيه تمساح ضخم، فطلب أن يُحضَّر هذا الحيوان عشاءً له. فبعد أن اتفق مع صاحب التمساح، أسرع يجلس إلى المائدة، وراح يلتهمه - لا يلتهم صاحب التمساح وهو ألماني متواضع منتظم بل يلتهم التمساح - راح يلتهم التمساح حيًا، فهو يقتطع من لحم التمساح بسكينه لقمًا ضخمةً يسيل منها الدهن، فيحملها إلى فمه ويزدردها بشراهة.

وشيئًا فشيئًا غاب التمساح كله فى تلك الهاوية التي لا قرار لها. وحين فرغ صاحبنا المحب للأطعمة الفاخرة من إلتهام التمساح أظهر رغبته في أن يأكل النمس، وهو الحيوان الذي يرافق التمساح عادةً، اعتقادًا منه بأن النمس لا يقل عن التمساح طيب مذاق ودسامة لحم.

إننا لا نرى أي بأس في الإقبال على تناول هذا الطعام الجديد الذي عرفه محبو الأطعمة الفاخرة الأجانب منذ زمن طويل، حتى لقد تنبّأنا برواجه في الماضي. إن اللوردات والسواح الإنجليز قد أسروا في مصر عددًا كبيرًا من التماسيح، وذاقوا ظهورها شرائح مشوية (بُفْتِيك) مُبَتَّلةً بالخردل والبصل مع شيءٍ من البطاطس.

والفرنسيون الذي جاءوا إلى مصر مع فرديناند دي ليسبس يؤثرون قوائم التماسيح على ظهورها، ويشوون هذه القوائم في الرماد الساخن إغاظةً للإنجليز الذين يسخرون منهم ويتهكمون عليهم. ومن الجائز جدًا أن يتعلم الناس عندنا أن يحبوا أكل الظهور والقوائم جميعًا بدرجة واحدة، وإنه ليسرنا أن نرى نشوء هذا الفرع الجديد من فروع الصناعة الغذائية لإغناء وطننا الذي يبلغ هذا المبلغ من القوة والتنوّع.

وفي وسعنا أن نتنبأ، بعد هذا الهضم البطرسبرجي لأول تمساح، في وسعنا أن نتنبأ بأنه لن تمر سنة واحدة إلا وتستورد بلادنا من هذه التماسيح مئات ومئات. فلماذا لا نحاول أن نؤقلم التمساح في روسيا؟ إذا كان نهر نيفا باردًا مسرفًا في البرودة على هذه الحيوانات الهامة التي تنتجها البلاد الأجنبية، فإن في العاصمة مياهًا أخرى كثيرة، عدا أن الأنهار والبحيرات في خارج العاصمة لا تعوزنا البتة. ألا نستطيع مثلًا أن نتعاطى تربية التماسيح في بارجولوفو أو في بافلوفسك. أو في موسكو، في غدران بريسنيا وفي ساموتيوكا؟ ([15]) إن التماسيح التي قد نربّيها في هذه المواطن سوف تكون طعامًا لذيذًا وصحيًا لأفواه المآكل الفاخرة من جهة، وسوف تكون من جهة أخرى بهجة كبيرة وتسلية عظيمة للسيدات اللواتي يتنزّهن في تلك الأماكن، وسوف تكون في الوقت نفسه أمثلةً عملية للتلاميذ في دروس التاريخ الطبيعي. ومن جلودها سنصنع علبًا وحقائب، ومَحافظ للسجائر، ومحافظ للأوراق؛ إن ملايين من

الروبلات، إن ملايين من تلك الأوراق المالية المتسخة التي يحبها التجار حبًا عظيمًا، يمكن أن تكون كامنةً في جلد تمساح. وفي نيَّتنا، على كل حال، أن نعود إلى معالجة هذه القضية الهامة، مرارًا وتكرارًا».

إن ما تشتمل عليه هذه المقالة من بعد عن الصحة ومخالفة للواقع قد ساءني كثيرًا، رغم أنني توقّعت أن أقع فيها على شيء من ذلك. وإذ لم أعرف من ذا الذي يمكنني أن أعبِّر له عن مشاعري، فقد إلتفتُّ ببصري نحو بروخور سافتش الجالس أمامي، وفي تلك اللحظة إنما أدركت أنه كان ينظر إليَّ منذ مدة طويلة ولا شك، ممسكا بيده نسخة من جريدة «الشعرة»، وكأنه يهم أن يناولني إياها.

وبدون أن يقول كلمة واحدة تناول جريدة «الورقة»، التي مددتها إليه، وأعطاني جريدة «الشعرة»، وهو يدلني بظِفْره على المقالة التي كان يريد أن يلفت إليها انتباهي. إن بروخور سافتش هذا إنسان غريب عجيب. هو رجل متقدم في السن لم يتزوج، وليس بينه وبين أي واحد منا علاقات، ولا يكاد يكلم أحدًا من موظفي الدائرة. وإن له دائمًا، في أي أمر من الأمور، رأيًا خاصًا، ولكنه لا يطيق أن يفضي بهذا الرأي إلى أي إنسان. وهو يعيش وحيدًا، حتى لأكاد أقطع بأن أحدًا منا لم يدخل بيته في يوم من الأيام.

إليكم ما قرأته في جريدة «الشعرة»، في الموضع الذي عيَّنه لي بإشارة من ظفره:

« يعلم الناس جميعًا أننا تقدّميون وإنسانيون، وأننا من هذه الناحية نستطيع أن ندَّعي بأننا نعادل أوروبا. ولكن مهما تكن جهود شعبنا، ومهما تكن جهود جريدتنا، فلا بد لنا من الإعتراف بأننا ما زلنا بعيدين عن أن نصبح «ناضحين»، إذا جاز أن نقطع برأي في هذا الموضوع على أساس حادثة مثيرة للحنق كان «الممر»، مسرحها بالأمس، وكنا قد تنبأنا بها دائمًا.

وصل إلى بلادنا رجل أجنبي يملك تمساحًا، وأخذ يعرض حيوانه في «الممر». نسارع فنقول على الفور إننا نبارك هذا الفرع الجديد من فروع صناعةٍ مفيدة، وهو فرع ما يزال ينقص جذعَ وطننا القوي المتنوّع.

ولكن إليكم ما حدث: أمس، في الساعة الرابعة والنصف، وصل إلى محل ذلك الرجل الأجنبي، على حين فجأة، رجلٌ سمين جدًا قد أخذ السكر منه كل مأخذ، فما إن دفع ثمن تذكرة الدخول، حتى مضى يقتحم فم التمساح دون أن ينبِّه أحدًا، فلم يملك التمساح إلا أن يبتلعه، ولو بدافع غريزة البقاء وحدها تحاشيًا للاختناق. وما كاد الرجل المجهول يهوي في جوف التمساح حتى نام نومًا عميقًا.

ولم تنفع لا صرخات صاحب التمساح ولا دموع أسرته المروَّعة. وعبثًا حاولوا تهديد السكران باستدعاء الشرطة، فما من شيء أحدث في السكران أي أثر، وكان السكران لا يزيد على أن يضحك مقهقهًا بوقاحة وهو في قرارة التمساح، وعلى أن يحتج قائلًا إنه سيعاقب التمساح جلدًا بالسياط (هكذا)، بينما كان الحيوان اللبون المسكين الذي اضطر إلى بلع لقمة ضخمة كهذه اللقمة يذرف دموعًا غزيرة. وأصرَّ الدخيل على أن لا يخرج.

إننا لا نعرف كيف نعلل وقائع تبلغ هذا المبلغ من التوحّش والهمجية، وتدل على أننا ما نزال بعيدين عن النضج بعدًا كبيرًا ([16])، وتحط من قدرنا في نظر الأجانب. إن هذا المَيْل إلى الجنون، وهو جوهر خلقنا الروسي، وقد تجلى في هذه الواقعة على أوضح نحو. ومن حق المرء أن يتساءل: ماذا يمكن أن تكون نية هذا الرجل المزعج؟ أتراه كان ينشد مأوى دافئًا مريحًا؟ ولكن أليست العاصمة ملأى بالمنازل التي تضم مساكن مريحة بخسة الأجور، مع ماء وغاز في السلالم، وحراسها سويسريون؟ ثم إننا نلفت نظر قرائنا إلى القسوة الشديدة التي تشتمل عليها معاملة كهذه المعاملة لحيوان منزلي. إن القراء يعلمون أن من الصعب على هذا التمساح أن يهضم كتلة تبلغ هذا المبلغ من الضخامة. فالحيوان المسكين العاثر الحظ قابعٌ الآن في مكانه مهدَّم القوى منتفخ البطن ينتظر الموت وسط آلام مبرحة لا تطاق. إن المحاكم في أوروبا قد بدأت، منذ زمان طويل، بمحاكمة أولئك الذين يعاملون الحيوانات المنزلية معاملة خالية من الروح الإنسانية. أما في بلادنا، فرغم شيوع الإضاءة على الطريقة الأوروبية، ورغم رصف الطرق على الطريقة الأوروبية، ورغم بناء المنازل على الطريقة الأوروبية، سينقضي وقت طويل قبل أن نقتصَّ من الأشخاص الذين يرتكبون مثل هذه الأعمال الإجرامية. أصبحت المنازل جديدة، ولكن أوهام العقول ما تزال عتيقة! ([17]) بل هل المنازل جديدة حقًا؟ إننا لا نستطيع أن نقول هذا دائمًا عن سلالمها؟ فكم من مرة أشرنا في أعمدة هذه الجريدة إلى القذارة المؤسفة الموجودة منذ أشهر على درجات السلم الخشبي من عمارة التاجر لوكيانوف الواقع على شارع بطرسبرجسكايا، هذا السلم الذي هو هيكلٌ متداعٍ كان يشكل خطرًا جديًا على الخادمة أفيميا سكابيداروفا، التي تضطرها ضرورات عملها إلى صعوده دائمًا لنقل الماء والحطب إلى فوق. وقد حدث ما تنبأنا به بالفعل، حدث أمس، في الساعة الثامنة والنصف من المساء، حين سقطت آفيميا سكابيداروفا وهي تحمل صحفة الحساء، فانكسرت ساقها. ونحن نتساءل مع ذلك، هل سيكونٍ من شأن هذا الحادث أن يدفع لوكيانوف أخيرًا إلى أن يعزم أمره على اصلاح سلّم منزله... نتساءل هذا التساؤل لعلمنا بأن الروسي رجل عنيد. وبانتظار ما سيحدث، فإننا نُعلم القارىء أن الخادمة التي كانت ضحية هذا الإهمال الروسي قد نقلت إلى المستشفى.

ولن نملَّ كذلك. أن نكرّر ما سبق أن قلناه مرارًا من أن على البوّابين، حين يزيحون الثلج عن أرصفة شارع فيبورجسكايا، أن يتخذوا بعض الاحتياطات تحاشيًا لتلويث أحذية المارة بالطين. لماذا لا يكوّمون الثلج أكداسًا صغيرة، كما يفعل الناس في أوروبا؟ ... إلخ، إلخ...».

نظرت إلى بروخور سافتش مندهشًا بعض الاندهاش وسألته:

- ما هذا الكلام؟

- أي كلام؟

- عجيب! يشفقون على التمساح بدلًا من أن يرثوا لحال إيفان ماتفئتش!

- سيان أن تكون الشفقة على هذا «الحيوان اللبون»، أو على ذاك. فإنما المهم أن يشفقوا! أليس هذا على الطريقة الأوروبية؟ إن الناس في أوروبا يشفقون على

التماسيح أيضًا! هيء هيء هيء!...

قال بروخور سافتش العجيب هذا الكلام، ثم استغرق في أوراقه ولم ينطق بعد ذلك بكلمة.

وضعت جريدة «الشعرة»، فى جيبي، وجمعت مئونة من الجرائد لصاحبي المسكين إيفان ماتفئتش، ثم خرجت من الدائرة رغم أن موعد الخروج ما يزال بعيدًا، وذهبت إلى «الممر»، لأعرف ما يجرى فيه ولو من بعيد، ولأجمع مختلف الآراء. وإذ كنت أتنبأ أن يكون الزحام هنالك شديدًا حتى ليكاد الناس يدوس بعضهم بعضًا، فقد رفعت ياقة معطفي من قبيل التخفي، لأنني كنت أشعر بشيء من الخجل لا أدري لماذا، فنحن أناس لمَّا نألف كثرة الكلام عنا. ولكنني أشعر أنني ليس من حقي أن أذكر إحساساتي الخاصّة، المبتذلة، الخالية من الشعر، تجاه حادث يبلغ هذا المبلغ من البروز والتفرّد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

Notes

[←1]

كان «الممر» بمدينة بطرسبرج يضم متاجر، ويضم كذلك قاعات للموسيقى والمحاضرات والمعارض.

[←2]

«بطرس لافروف» (1823 - 1900): ناقد وضعي ألقى سنة 1860 ثلاث محاضرات عن «أهمية الفلسفة الحديثة»

[←3]

نيكولا ستيبانوف (1807 - 1877): هو رسام كاريكاتوري، ومحرر في جرائد هجائية، مثل جريدة «الشرارة» وجريدة «اليقظة»

[←4]

يستهدف دوستويفسكي هنا جريدة «رسول سان بطرسبرج»، التي كان يصدرها ف. ف. كورش؛ وجريدة «الصوت»، التي كان يصدرها كرايفسكي، مستفيدًا من التشابه اللفظي بين الكلمتين الروسيتين «Golos» (ومعناها الصوت) و «Volos» (ومعناها الشعرة)

[←5]

«التملك الجماعي»: أوجب قانون الإصلاح الزراعي الصادر سنة 1861 أن لا تكون الأرض التي يفلحها الأقنان ملكا لهم، وإنما تقيمها بينهم الجماعة الفلاحية التي تتصرف فيها تصرف المالك. وهذا النظام البدائي من التملك الجماعي قد تحمّس له أنصار السلافية، وتحمس له جزء من الاشتراكيين وهاجمه الاقتصاديون الليبراليون مهاجمة عنيفة.

[←6]

«إبن الوطن»: جريدة ليبرالية ظهرت منذ العام 1864.

[←7]

«شارل فورييه»: اشتراكي سبق ماركس، كان يأمل في تغيير العالم وتحويله إلى نظام اقتصادي أفضل عن طريق المثال الصالح، والعمل التعاوني الاختياري.

[←8]

«جارنييه باجيس» (1808- 1878): جمهوري، عضو في الحكومة المؤقتة سنة 1848، عضو في الهيئة التشريعية منذ عام 1864.

[←9]

«آندره كرايفسكي» (1810- 1889): ناشر بارع كان يصدر عدة مجلات، ولكنه ليس على حظ كبير من الثقافة؛ شرع سنة 1861 في إصدار «معجم موسوعي» بمعاونة الحكومة، فأثار ذلك احتجاج الأدباء.

[←10]

«أندره ألكسندروفتش»: هو آندره كرايفسكي نفسه الذي تحدثنا عنه في الحاشية السابقة، والذي كان قليل الحظ من الثقافة، ولا يمكن أن يشبَّه بالكاتب والشاعر الفرنسي ألفرد دو موسيه، بوجه من الوجوه.

[←11]

«أوجيني تور»: هو الاسم الأدبي المستعار للكونتيسة ساليياس دو تورنمير، التي كان اسمها سوخوفو - كوبيلين (1815- 1892)، وهي أديبة روسية، روائية وناقدة.

[←12]

«إن المتوحشين يحبون الاستقلال، ولكن الحكماء الحقيقيين يحبّون النظام قبل كل شيء»: استشهاد غير دقيق بجملة وردت في قصة لكارامازين عنوانها «مارثا الحاكمة» نشرت سنة 1802، وهي تصف زوال استقلال فوفجورود على يد المستبد حنا الثالث، وأصل الجملة ما يلي: «الشعوب المتوحشة تحب الاستقلال، أما الشعوب الحكيمة فإنها تحب النظام، ولا نظام من دون سلطة مستبدة»

[←13]

«الصحيفة»: إشارة إلى صحيفة (سان بطرسبرج).

[←14]

«مطعم بوريل»: مطعم من أشهر مطاعم سان بطرسبرج، وكان صاحبه رجلًا سويسريًا.

[←15]

«بارجولوفو، بافلوفسك»: من أماكن الاصطياف قرب سان بطرسبرج. أما «غدران برييسنا» فهي توجد في ضاحية تقع في الجنوب الغربي من موسكو؛ وأما «ساموتيوكا»، فجدول ماء بمدينة موسكو يجري في أنبوب ويغطيه بلاط.

[←16]

«لا نزال بعيدين عن النضج بعدًا كبيرًا»: جملة للاقتصادي لامانسكي في خطاب ألقاه سنة 1859، وقد راجت هذه الجملة وجرت على ألسن الناس كثيرًا.

إن السخرية ها هنا واضحة.

[←17]

«أصبحت المنازل جديدة ولكن أوهام العقول لا تزال عتيقة»: جواب تشاتسكي في مسرحية جريبويدف الشهيرة تحت عنوان (كثير من الذكاء ضرر)